الحب في الزمن الخطأ

إسماعيل النقيب

دار الشروق

الحُبّ .. في الزمن الخطأ !

الطبعة الأولى

١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 25779G

إسماعيل النقيب

الحب .. في الزمن الخطأ !

دار الشروق

إهداء

إلى حبيبتي.. التي كانت في حبها جزيرة للعواطف.. وكنت في حبها محاصراً بالأعاصير والمخاوف.

إسماعيل النقيب

الفَصْـل الأول

كان مختار عبد الله يختلف مع صديقه أحمد حول كلمة تقال في الحب. فصديقه أحمد دائماً ما كان يردد أن علاقتي في الحب مثل العلاقة التي ترتبط بين الشاطىء، وموج البحر. يتولد الفراق في لحظة اللقاء!

ولكن مختار عبد الله يرى في الحب كلاماً قريب الشبه من ذلك، ولكنه يختلف. فهو يرى أن العلاقة في الحب مثل علاقة المسافر بوسيلة السفر.. يتولد الفراق عند اللقاء ولكن سيظل اللقاء قائماً لبعض الوقت. قد يطول لو كان السفر على ظهر باخرة. وقد يقصر لو كان في الطائرة. وقد يكون بين هذا وذاك في وسائل السفر الأخرى، ولكن في كل الأحوال لا بد من الفراق. ولا بد من العودة للحب!

ولكن مختار عبد الله اتفق أخيراً مع صاحبه أحمد في علاقة الحب بأمواج البحر والشاطىء يحدث الفراق وقت اللقاء.

وكان من الطبيعي أن يسأل أحمد صديقه مختار عبد الله عن

سبب هذه الموافقة المفاجئة. . والتي تمثل انتصاراً لوجهة نظر أحمد في الحب. . وأمواج البحر والشاطىء.

فطلب مختار من صديقه أن يسمعه حتى النهاية. . حتى لو طالت روايته. . وفيها اقتناع بوجهة نظره.

فقال مختار: شيء محير: فأنا كإذاعي يعرفني معظم الناس من صوتي في الراديو. . وقد يصل صوتي إلى الدنيا البعيدة. . إلا أنني إنسان محاصر ومحدود. . ولي جهات أصيلة تدل على شخصيتي!

فقاطعه صديقه أحمد قائلاً: أفصح عما تقول!

فقال مختار: أنا يحدني شمالاً أهلي في الريف. وجنوباً بيتي في القاهرة. وشرقاً مكان عملي. وغرباً أصدقائي. وبسبب ذلك صادفني أخيراً ما يجعلني مثلك اقتنع بأن الفراق في الحب ينشأ عند اللقاء مثل موج البحر والشاطىء.

فقاطعه أحمد مرة ثانية واستعجل حديثه:

فروى مختار روايته. . وصوته الإذاعي قد خفت حدة النبرات فيه. . بل كان صوته مزيجاً من الحسرة والشرود والفرحة، والألم، والندم. والصمت. وقد كانت كلماته تتلون مع صوته حسب حديثه فيما يروي من أحداث في أيام الحب.

في البداية أشرق القلب بنور الحب عندما سرت في سماء المطار نسمات شاردة في ليلة اختزنت حرارتها من لهيب الشمس في النهار.

عندما أغراني صديقي عباس بالذهاب إلى المطار لاستقبال شقيقه رأفت العائد من السفر في طائرة تصل قبل منتصف الليل. وكنت أعرف شقيق صديقي وتربطني به علاقة ودودة لم تصل إلى درجة الصداقة مثل شقيقه الأصغر رأفت الذي أعرفه منذ سنوات الدراسة في الجامعة. وفي الحقيقة المشوار أغراني حباً في هواء مثل هذه المناطق. . وكأن الهواء احتجب عن المدينة أو غاب عنها.

والمطار كما هي العادة مزدحم وهو قطعة من النهار بأضوائه وزحامه. ولكن شيئاً يجعلني دائم الشرود في هذا المكان. . وهذا الشيء الذي تستجيب له نفسي أحياناً بالاضطراب وعيناي بالدموع هو منظر المودعين والمستقبلين. فرحة اللقاء، وقسوة الفراق.

فرحت في أول الأمر في التأمل لأفراح العودة وقسوة الوداع والأحضان والقبلات أيضاً. . وفي كل الحالات كانت تجري دموع في العيون.

وأخذتني التأملات بعيداً عن الذين حولي من المستقبلين من أهل وأصدقاء شقيق صديقي. ولم يكن بينهم من أعرفه. ولكن على كل حال قام صديقي بتقديمي إلى الموجودين جميعاً.

وشعرت ببعض الزهو الممزوج بالفرحة، والتواضع العفوي من بعض كلمات الثناء على صوتي وطريقتي الإذاعية في الأداء.

وبعد تقديمي للأهل والأصدقاء . . فرحت من جديد في تأملاتي في وجوه المسافرين . . فرحة الأم باستقبال وحيدها . . ولوعة أم أخرى تودع ولدها . وزوجة تستقبل زوجها وأحضان الزوج لأطفاله وقبلاته على خد زوجته . ودموع الزوجة والبنات عند وداع أبيهم المسافر . . وكلها صور أفرح لها وينقبض قلبي لها . . وأحياناً في هذه التأملات أنفعل معها إلى حد الرغبة الشديدة في البكاء . واحتباس الصوت .

ولفت ذلك نظر الموجودين لدرجة أنهم بادروني بالقول :

ما لنا نرى المذيع الذي يملأ الدنيا كلاماً لا يتحدث . واكتشفت أن صوتي يكاد لا يخرج من حنجرتي بسبب انفعالاتي والتدقيق في وجوه المسافرين والعائدين والمودعين .

وفجأة سألني صديقي : مالك؟!

قلت : بعدما عاد إلى نفسي بعض الاتزان والهدوء وخفت حدة ذلك الاضطراب : إنني دائماً ما أشعر بالحزن لرحيل الانسان المسافر، حتى لو كان السفر فيه الأمل والرجاء . ولكن كلمة الاغتراب مساوية عندي لأحزان النفس ودموع العين . واستطردت قائلاً : ربما راحلاً بدنياه إلى حيث لا يعود، وربما كان المسافر معاراً أو مبعوثاً . أو فاراً بدينه الى أرض الله الواسعة .

فقال أحد الحاضرين مقاطعاً : أو تاجر شنطة!

فضحك الحاضرون!

وأشاعت الضحكات جواً من الألفة بددت جهامة النفس لمناظر المسافرين.

ودار الحديث قصيراً عن استفحال تجارة الشنطة. ولم أشارك في هذا الحديث.. حتى عندما سألني البعض عن رأيي فاكتفيت بقولي إنني أكره حديث المال والتجارة!

فقال آخر: تجار الشنطة ورجال الانفتاح هم رجال العصر الحديث.

وعاد الحديث إلى تضخم الثروات والأرقام الفلكية، وصفقات العمر.

ما زلت في شرودي. ولكن سمعي كان يلتقط بعض أطراف الحديث. مثل قصة ذلك التاجر. الذي كسب مليون جنيه في صفقة واحدة.

فقلت: لازم تاجر مخدرات من إياهم.

فقال المتحدث: أبداً.

هذا كسب مشروع وحلال في ظل القوانين الجديدة، والتي أفادت الشطار من التجار. فمثلاً ذلك الرجل عرف من جرنال إنجليزي أن قيادة حلف الأطلنطي في بلجيكا تريد أن تتخلص من ملابس الجنود التي تزدحم بها مخازنها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

عام ١٩٤٥، وتبيع هذه الملابس التي كانت مخصصة لجنود جيوش الحلفاء في الحرب، ومن أهم هذه الملابس البلاطي، والتي لم تعد صالحة لاستخدامها برغم أنها ما زالت جديدة بسبب طريقة الحفظ الجيد، ورشها بالسوائل التي تمنع عنها «العتة» أو التلف. وهذه البلاطي كانت تباع بالطن، وشارك في المزاد ذلك التاجر المصري واشترى عدداً من الأطنان من هذه البلاطي، وكان سعر البالطو لا يزيد على نصف دولار، وأدخل هذه الصفقة وبدون جمرك مستفيداً بالإعفاء لأنها ملابس قديمة، ومعه شهادة تثبت تاريخ صناعتها. وباعها للفلاحين في الوجه البحري والصعيد بسعر ١٢ جنيهاً للبالطو الواحد.

وقال آخر: إن الموضة في هذه الأيام هي أن تكون رجل أعمال. أو تعمل في بنك استثمار. وتقبض ١٥٠ جنيهاً للجلسة الواحدة. أو تأخذ بدل سفر ٧٥٠ دولاراً لليوم الواحد.

وقال رجل ثالث يتسم بالحكمة والوقار: إن هذه القوانين زادت الفقير فقراً. والغني غنى! يكفي أن يكون المال فتقطع الطريق على الناس بمالك الحلال! كأن توظف أموالك في تجارة الشقق.. تشتريها وتغلقها.. ثم تبيعها بأضعاف ثمنها بعد عام. وكذلك تجارة الأراضي.

وكثر الحديث.. وازداد انقباض الصدر مع هذا الحديث السمج والممل جداً. وازدادت رغبتي في الصمت.

ولاحظ الموجودون صمتي وشرودي مع الوجوه العابرة ومع النسمات الصيفية في ليل القاهرة . .

وسألني البعض إن كنت معهم في الحديث .

فأجبت باقتضاب شديد : نعم!

وسأل من جديد :

ولماذا لا تشارك في الحديث؟

قلت : أنا من أهل الصمت عند الحديث المفيد. وقلت هذه العبارة مجاملاً .

ولكن صديقي قال : يا سلام من أهل الصمت . . وأنت صاحب «مكلمة»! . . وضحك الحاضرون لهذه الكلمة . وواصل صديقي الحديث مشيراً إلي . . إنه لا يعطي فرصة لأحد في الكلام . ولكنه في هذه الليلة يقول أنه من أهل الصمت! . . طبعاً هو يخدعكم!

وفي الحقيقة أنني لم أسترح لكلمة الخديعة التي انفر منها . ولكنني قلت : صحيح إنني من المتحدثين. ولكنني صاحب اتجاه في علم الكلام . . وأضفت علم الكلام «الهايف» لا علم الكلام الذي وضعه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . . والذي هو علم الفقه! فهناك من يرى أن الذي يصلح للصمت لا يصلح للكلام . وهذا رأي «الكلامنجية» المحدثين . ولكنني أرى أن الذي يصلح

للصمت المبين. . يكون متحدثاً مبيناً. بشرط أن يتحدث في حالة واحدة. ويصمت في حالتين.

يتحدث عندما لا يعلو على حديثه.

وتدخل صديقي مقاطعاً: بحيث يعلو صوته على صوت المعركة. (ضحك).

ثم واصلت حديثي قائلاً: ويصمت إذا كان المتحدث. . بليغاً وعالماً، وأستفيد من علمه الغزير. أو أصمت احتقاراً لمناقشة. . لا سبيل إلى احتقارها إلا بالصمت من جانبي!.

ولاحظت الاهتمام من الموجودين بما قلت. . وسبب الاهتمام أن حديثي جاء بعد صمت طويل. . وثانياً وضعت المتحدثين في حيرة. . فهل يا ترى كان حديثهم من ذلك الذي لا يعلو عليه، أو من النوع الذي لا سبيل إلى احتقاره إلا بالصمت. وصدق ما توقعت. وإذا بصديقي المشاغب الذي يريد أن «يجرني» للمشاركة أو الاشتباك معهم في الحديث. وإذا بالصديق يسألني إن كنت مقاطعاً الحديث للعلم والانتفاع أم للاحتقار.

فبادرت قائلاً:

استغفر الله. . للانتفاع طبعاً.

وأنقذني صوت المذيعة الداخلية للمطار. . والتي تعلن عن تأخير الطائرة القادمة من لندن لمدة ساعة!

فقلنا جميعاً على الفور: لازم جاي على شركة مصر للطيران. . ولكن صوتاً نسائياً جاءنا من بعيد برغم أن صاحبته تجلس بيننا ولكنها لا تشارك إلا بالاستماع والتدخين. . قالت هذه السيدة: أبداً هو قال في البرقية أنه جاي على شركة بريطانية. وإذا ببعض الموجودين يقول: يمكن غير وركب مصر للطيران.

فقلت: على العموم جميع شركات الطيران أصبحت من حين إلى حين تنافس بعضها في التأخير. . وشركة مصر لا تنفرد وحدها بمسألة التأخير. وإن كان حظي معها في السفر إنها دائماً كانت تقوم في موعدها! وهذه شهادة لله!

ومنذ تلك اللحظة وأنا عيني على تلك السيدة من بعيد لبعيد. ولفت نظري أنها من ذلك النوع من الجميلات اللاتي يشعرن بجمالهن الواثق واللافت للنظر. ولديهن ذلك الشعور الجاهز بالوقوع فوراً في هوى ذلك الجمال. ولذلك كانت ترى أن في صمتها رفعة لقدرها وأنا في الحقيقة يستهويني هذا النوع من الجميلات. . ولكنني لا أقبل عليها خشية الوقوع في الحرج. وأعظم طريقة في معاملة هذا الصنف هو الابتعاد. . وأن يعجب المرء من بعيد، بحيث لا يتعدى الاعجاب داخله.

ونظرت إلى صاحبة الجمال الواثق، فوجدت أنها تخفي دبلة زواجها في يدها اليسرى خلف خاتم كبير أخذ جماله من جمال يديها البيضاء ذات الأصابع الطويلة.

وعاد الحديث من جديد. وعاد صمتي من جديد. مع نظرة غافلة أخطفها لتلك الجميلة التي تلمح في عينها هدوء التمرد، وكانت بين لحظة وأخرى تزيح خصلة من شعرها الناعم تائهة على ذلك الجبين المستقر على وجه كله جمال!

وكان المتحدث هذه المرة ذلك الشخص الذي يبدو عليه الوقار.. وقال: إن البلد لو استمرت بهذه الطريقة.. فهذا معناه الاتجاه نحو الهاوية.

فوجدت نفسي مدفوعاً بالغيظ وأريد تغيير نغمة الحديث الذي أوشك أن يقودنا نحو الغرق في كلام الاقتصاد.. وقلت: لا هاوية.. ولا حاجة.. ومصر «المحروسة» ستظل بخير ببركة الأولياء الصالحين.

وقلت أيضاً: أنا لا أصدر عن حديث من عندي.. ولكن سبقني إليه أحد خبراء الاقتصاد العالميين الذي زاروا مصر بدعوة من الحكومة لتنظيم اقتصادها في أوائل الخمسينيات، ووجد أن كل شيء ينذر بالخطر.. وأن السير على نحو ما نسير عليه هو الكارثة.. وكانت المشكلة من التعقيد بحيث لا يرى معها حلاً آجلاً.. وقال قولته المشهورة: خليكم كدة بالبركة!

فرد عليه أحد السامعين قائلاً بسخرية المصريين: بركة الصالحين يا خواجة!

وعز علي أن يكون حديثي بالغ التسطيح هكذا. . وإن كنت قد أردت ذلك هروباً من كلام ثقيل مثل حر النهار الذي يزهق الأرواح. ووجدتني أقول من جديد:

أنا أعرف أستاذاً من كلية العلوم ومتخصصاً في الاحصاء.

وحدثني حديثاً قال فيه: إذا وصلت أزمة المساكن على ما هي عليه فمستوى الأخلاق في خطر. . بمعنى أن ذلك سوف يؤخر زواج الشباب مما سيورث الأسرة العصبية، والعصبية مرض شديد العدوى.

وقلت: يكفي أن تشعر إحدى الأمهات أن ابنتها أصبحت عانساً. . وهذه النسبة لو وصلت إلى ١٦٪ فهذا هو النذير. . وأنا أعرف النسبة قد تعدت ذلك الرقم. كذلك شبابنا الحائر. . وغموض المستقبل بالنسبة له.

ويكفي هذه القصة لبيان عمق المأساة التي لا يظهر منها سوى ما هو على السطح مثل جبال الجليد في البحار أكثرها تحت السطح، وقد حدثني طبيب صديق: إن إحدى الأمهات قد لجأت إليه لستر ابنتها. . وطلبت منه إجهاضها لأنها حامل. . بعد أن أخطأت مع زميل لها وعدها بالزواج ثم تخلى عنها. ولو أن أباها عرف فسوف يقتلها.

ووافق الطبيب حماية للأسرة ومنعاً للجريمة وتشريد أسرة

بكـاملها، ولكنـه استمع من الفتـاة بعد العمليـة وهي لـم تتخلص بعد من أثر المخـدر. . أن الذي فعـل فعلته معهـا هو. . «أخـوها» لأنهم سبعة من الأشقاء ينامون في غرفة واحـدة، وكانت أحيـاناً مـا تشاهد أباها وأمها في حالة حب ليلاً. وكذلك شقيقها. وفي إحدى الليـالي كانت بجـانبه ليـلاً. . وحدث مـا حـدث وهمـا بـين النـوم واليقظة . .

وقلت: إنهما معـذوران. . فالحيـاة الحشريـة التي تعيشها هـذه الأسـرة وكذلـك الكثير من الأسـر، أصبحت مع هـذا الـوضـع لا تعرف العيب. فالعيب أن يكون هناك حاجز للعيب ثم تنتهكـه اما إذا لم يوجد هذا الحاجز. . فلا وجود للعيب!

وفي لحظة أثناء حديثي شعرت كما لو أن النسيم حمـل إلى قلبي رسـالة «يـوشـوشني» فيهـا بهمس الحب. . وذلـك عنـدمـا اقتربت تلك الجميلة من مجلسنا وفتحت علبة سجائرهـا «الحريمي» وقـدمت لي سيجارة. فاعتذرت بدعوى أنني لا أغير نوع سجائري .

وواصلت حديثي الذي كان أشبه بالدفـاع عن نفسي في لحظة صمت أو في لحـظة «تسـطيـح» لـلأمـور. وفي أثنـاء استمـراري في الحـديث وجـدت إحـدى المـوجـودات من أقـارب شقيق الصـديق العائد، تعطيني من سجائرها. وبحركة تلقائية أو ربما كانت متعمدة في عقلي الباطن وجدتني أمد يدي وأضع سيجارتها في فمي!

وبحركة من يدي استدعيت أحد الجرسونات وطلبت عدداً من عصير الليمون بعدد الموجودين إلا واحداً.. وتعمدت ذلك.. وقلت نشرب كمان حاجة في الجو الظريف ده! ولم يلحظ أحد عدد ما طلبت لأنه لم يفكر أحد في عدد الموجودين بالضبط نظراً لأن الطلبات السابقة كانت متنوعة وقام بحصرها الجرسون وكانت بين القهوة والشاي والكازوزة.

وجاء الجرسون حاملاً الطلبات. وأعطيت كل الموجودين فيما عدا أنا. وعللت ذلك أنني ضعيف في الحساب.. ولعلني لم ألحظ تلك الأخت التي كانت بعيدة عنا، ولم تشاركنا الحديث ولذلك فأنا أعاقب نفسي بإعطائها «الكوب» الخاص بي.. وبادر الجميع بإعطائها أو إعطائي.. ولكنني حسمت الأمر بسرعة بأن طلبت من الجرسون «كوباً» آخر!

وواصلت حديثي الجاد.. ولا أذكر فيما تحدثت من كثرة الاستشهادات بالشعر وكلام الآخرين.

وقطع الحديث إعلان صوت المذيعة الداخلية عن قرب موعد وصول طائرة لندن. وأصبح أمامنا أقل من ساعة ويذهب كل إلى حيث جاء بعد وصول العائد بالسلامة!

كان قلبي لم يزل يحدثني عن تلك الجميلة الواثقة ولم أشأ أن

تقــع عيني عليهـا خــوفـاً أن تفضحني مشــاعـري ولكنني افتعلت حـركة. . قمت فجـأة بدعـوى الحديث في التليفـون. . ثم عدت بسرعة بدعوى ان التليفون مشغول. . ثم رجعت مـرة أخرى بعـد مدة. . وعدت بسرعة بدعوى أن الرقم لا يرد أحد فيه.

وكان الرد بـطبيعة الحـال من أحد المـوجودين بـأن التليفونـات «عطلانة».

وإذا بي أتحدث عن التليفونات من باب مـا حـدث لي شخصيـاً معهـا. رويت لهم قصة. . وكنت أريـد من ورائهـا أن ألقي بـرقم تليفـوني لمن يـريـد أن يلتقـطه، ونـدمت أنني جعلت تليفـوني. . سـري. . ولم أشأ أن يـوضع في الـدليل بـدعـوى أنني لا أعمـل في المحاماة أو في الطب!

وقلت حـدث ذات مـرة أن أحـد رؤسـاء الـوزراء السـابقـين صادفني في حفل استقبـال صدفـة. . وقال لي لا تعط رقم تليفـونك لمتحدثات في آخر الليل حتى لا أنزعج أنا. فقلت له: لم أفهم!

فروى أنه يستيقظ ليلاً ليرد على صوت ناعم يطلبـك فلما أقول النمرة غلط تقول صاحبة الصوت الناعم هي دي مش نمـرة كذا. . أقول لا.

وكانت نمرة رئيس الوزراء هذا تختلف عن رقم تليفوني فقط في الرقم الأخير. فتليفوني ينتهي برقم ٢ وتليفـونه ينتهي بـرقم ٣. .

وكنت أقول لرئيس الوزراء بشرة خير. . أصبح الفرق بيني وبين أن أصبح رئيساً للوزراء رقماً واحداً وكنت أروي وأذكر أرقام التليفونات كـاملة ووجهي إلى أصدقـائي. . بعيداً عن ملكـة جمال هـذه الليلة التي «وشوشني قلبي والنسيم بشأنها».

ووصلت الطائرة. . وسار كل منا في طريق. . وأمضيت بجوار صديقي في سيارته سارحـاً طوال الطريق. . وخيالي يستعيـد جمالهـا الـواثق والربـاني والدقيق التقـاطيع، كـانت كاملة الحسن والبهـاء، وتسر الناظرين. ولكنني لم أقو على النظر إليها خوفـاً من نفسي وعلى نفسي من ذلك الجمال الذي ألقت به الصدفة في طريقي. وآه على ذلك الشعر الحرير الذي على الخدود «يهفهف» ويرجع يطير!

ولم تفارقني تلك الواثقـة في هذه الليلة. . أخـذها خيـالي معي إلى غرفة نومي. ولا أعرف متى دخلت في النوم!

مساء اليوم الثاني: دق جرس التليفون. . تمنيت أن تكون هي التي تـطلب لكن هيهات. كـان أحـد الأصـدقـاء. ولا أدري لمـاذا شعرت بالاحباط . وكان حديثي معه فـاتراً بـرغم أنه صـديق حميم وأسعد بحديثه معي. لدرجة أنه فكـر أنني مريض. وقـرر أن يجيء إلي في بيتي. وجاء ووجدني لا أشكو من شيء. ولكن ربما الارهـاق وكثـرة التفكير في تلك الحسنـاء كـان السبب. . وبـرغم أنها لم تكن هذه أول مرة أشـاهد جميـلات. . ولكن جمال هـذه المرأة من ذلـك النوع الذي تتمنى أن ترحل في شفتيه، وتسافر معه إلى عالم بعيد. .

بعيد.. فيه النداء.. وفيه الصد.. وفيه الرجاء.. وفيه الأمل.. والخوف من الاحباط !

ودق جرس التليفون من جديد.. فأسرعت إليه وإذا بالمتحدث صديق رحلة المطار بالأمس يشكرني على الصحبة الجميلة. وقال لي أنه بالمناسبة في مكان قريب من بيتي.. وسوف يمر علي بعد قليل.. فقلت: أهلاً.. ومرحباً.

ولاحظ صديقي الجالس سرعتي في الرد على التليفون، وسألني إن كنت منتظراً لمكالمة هامة.. من النوع «إياه» فنفيت، ولكن سرعتي في النفي أكدت شكوكه.. والتي حاولت تبديدها بقولي «يا ريت»!!

ولا أدري لماذا أخاف أن تفضحني مشاعري تجاه صديق لا يعرف شيئاً ولم يشاهد شيئاً. ولكن عمق الجمال في داخلي والشعور الذي يجعلني ارتفع وأهبط معه، جعلني في حالة عصبية لم أعرف معها الهدوء!

ووصل صديقي.. الذي فرح بوجود صديقنا المشترك وراح يقبله.. ويعاتبني على أنني لم أخبره.. فقلت في هدوء.. حبيت أن تكون مفاجأة للاثنين.

وكنت في حديثي معهما ضعيفاً وباهتاً!

واستمعت إلى جرس التليفون.. وكانت المتحدثة واحدة لا

أعـرفها. . ولم أتبـين الصـوت من كلمـة «ألـو» لأنني لم أستمـع إلى صوتها قبل ذلك. . ودق قلبي بنبض غـامض فيه الأمـاني أن تكون هي وشعرت فجأة وكأن السماء اقتربت من الأرض وجدتها لا تقول اسمهـا. . وأنا لا أعـرف اسمها أيضـاً. . ولكنهـا بـدأت حـديثها قائلة: أظن هتقول: أصل أنا مش واخـد بالي منـك. وأنا لا أغـير نوع السجائـر. . خوفـاً من الكحة ومـع ذلك أخـذت من غيري. سيجارتها. . وتصورت صاحبة السيجارة. . وكانت متوسـطة القيمة في الجمال. . ووجدتني أهتف في التليفون أهلاااان!

ولم أزد على ذلك حرفاً!. . واحداً!. . إنها هي صاحبـة الجمال كله!

وكنت أريد أن أقول الكثير. . ولكن أخبرتهـا أن لدي في هـذا الـوقت ضيـوف. . ويمكن التحـدث بعـد قليـل. . واكتشفت أنني ارتكبت خـطأ في حق صاحبي فإذا بهما ينصـرفان. . ولمـا سـألتهـما البقاء. . قالا: أنت كنت بتقول: اتصلي بي بعد قليل. . وهذا يعني قوموا بقى!!. . لأن القليل فات!

ولم أقل شيئاً. . وفعلاً كانت مشاعري الـداخلية تـريد ذلـك. ولكنني لـو دققت في كلامي قليـلاً. . لما قلت. وانصـرفا. . وبعـد قليل جاءني تليفون وخطفت السماعة بسـرعة أعـادت الحرارة من جديد إلى التليفون. . وانتظرت بجوار التليفون من جديد.

ولم أسمع له رنيناً في تلك الليلة الطويلة!!

ومضت أيامي ثقيلة بعد ذلك لدرجة التعب إلى حد المرض في صباح ذلك اليوم التالي واعتكفت في البيت.

واكتشفت أن التليفون لا توجد به حرارة وأسرعت إلى تليفون أحد البقالين أستعين بأحد كبار موظفي وزارة المواصلات لاصلاح تليفوني لأنني في انتظار أخبار مهمة من أحد الوزراء.

وسألني الموظف الكبير في وزارة المواصلات عن التعديل الوزاري المرتقب، فقلت: إن شاء الله خير.. وسوف أتصل بك عندما أعرف شيئاً!

واستمعت إلى التليفون يرن من جديد بعد ساعات وذهبت إليه تسبقني فرحتي، وإذا بالمتحدث أحد موظفي «الأعطال» في التليفونات ليطمئن على إصلاح التليفون. وشكرته مسرعاً. وطلبت الصديق الكبير في وزارة المواصلات أشكره على ذلك.

وبعد ذلك رنين آخر.. فرحت أرد متكاسلاً باليأس.. وكان المتحدث أحد مصادر المعلومات يخبرني بالاشاعات عن المرشحين للوزارة الجديدة، وقد لاحظ صاحبي فتوراً في صوتي لم يعهده، خصوصاً وقد سألته منفعلاً بلا مقتضى: دي اشاعات أم معلومات؟!

فقال لي ساخراً: والله أن الرئيس لم يخبرني! وانتهت المكالمة. وتليفون آخر استمعت إليه باليأس.. وذلك الرد النائم: نعم:

فإذا بالمتحدث ذلك الموظف الكبير في وزارة المواصلات والذي أعرفه ملهوفاً على دخوله الوزارة. «ويفصل» لذلك بدلة جديدة في كل موسم. ومع ذلك دائماً يردد هذا القول:

ربنا يجعل المسؤولين ينسوني.. أنا كويس كدة.. الوزارة أصبحت عبئاً نفسياً ومادياً. وأنا أعرف « وزراء » لا يريدون حراسة بسبب تكاليفها. ومرتب الوزير بسيط ، ومصاريف الوزير مكلفة في هذا الزمان.. أنا عن نفسي لو عرضوا علي الوزارة قد اعتذر.

فكنت أقول: أن الشخص الوحيد الذي يعتذر عن الوزارة هو ذلك الشخص الذي لم تعرض عليه الوزارة!

وقد سمعت أخيراً من أحد الأطباء الكبار والذي يشغل منصب عميد كلية الطب أنه اعتذر عن الاشتراك في الوزارة ليكون وزيراً للصحة بدعوى أنه يريد أن يكون أستاذاً فقط ولما سأله أحد أصدقائه عن سبب ذلك الموقف الغامض له.. فهو صاحب نشاط حزبي واضح بالحزب الوطني، وطموحه لا يغيب عن أحد.

فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنت عاوز الحقيقة أنا حبيت «أعمل تقيل»!.. فخذوها بجد وسابوني!.. علماً أنا كنت عاوز الوزارة علشان مراتي وأولادي في المدارس.. دائماً ما يحدثوني عن زملائهم أولاد الوزراء.. وكأنهم يشعرون بأنهم أقل درجة.. أو مواطنين من الدرجة الثانية.

. . فأخذ صديقه يخفف عنه بهذا القـول: إن عمر الـوزارة في البلاد النامية قصير. . وربمـا يفتكروك في المـرة اللي جـاية. . ثم أن الوزير في هذا الزمان عندمـا يبدأ يفهم شغـل الوزارة. . يكـون قد خرج في التشكيل الجديد. كما أن الوزير ليس سياسياً بمقدار مـا هو رجل تنفيذ.

فيرد الطبيب: ربنا كبير!

ويحاول صديقه أن يخفف عنه بقـدر من الصراحـة فيقول: أنـا نفسي بـرغم كل مـا قلته عن الـوزارة والوزراء: أن أحلف اليمـين كوزير سابق! (ضحك).

وشعرت أن مكالمتي قد طالت. . وحاولت إنهاءها واعتـرف أن التفكـير في صاحبـة الجمال كله لم يفـارقني. . ولكنه هـدأ. . وليتـه يتسرب مع الأيام!

وكـان قد مضى وقت طـويل من الليـل. . واستعنت بالقـراءة استعداداً للنوم.

وجاء رنين التليفون وبأمـل ضعيف خـوفـاً من الاحباط رفعت السماعة لأسمع صوتها. . ولكنني كنت في هذه المرة متماسكاً. . أو أدعي ذلـك من باب «التقـل». ولم تصـدر عني تلك «الأهـلاااان» الشهيرة. . والتي أسميها أهلا من أم ديل.

وتبادلنا حديثاً فيه قدر من الفتـور المصطنـع من جانبي وأنهينـا

حديثنا على طلب منها أنها تريد أن تراني.

وزيادة في «التقل» ادعيت أن مشاغلي تمنعني من المقابلة غداً وبعد غد.

واتفقنا أن تكون السابعة موعدنا في كافتيريات أحد الفنادق الكبرى.

وبعد الحديث التليفوني عادت أشواقي تناديني عليها وعرفت الندم.. ولماذا «التقل» في الحب.. ولماذا لم أكن صريحاً.. وليتني قلت لها اليوم قبل الغد. والغد في الصباح قبل بعد الغد. ولكن ما حدث قد حدث.

وأذكر أنني استعنت بالمهدئات في يوم اللقاء المحدد الذي كنت انتظره منذ صباح ذلك اليوم.. لعلني أهدأ.. أو أنام.. ولما كنت أحاول القراءة كانت تقف تلك الجميلة بين حروف الكلام.. ولم أستطع تكملة سطور قليلة. وكنت عصبياً بسبب قلق الانتظار.

وقلت لنفسي من باب الأدب لا بد أن تذهب قبل الموعد بدقائق.. فهي لا بد وأن تجدني في انتظارها احتراماً لها ولنفسي، خصوصاً وأنني أكدت عليها المجيء في الموعد المحدد، لأنني أضج بسبب تأخير المواعيد.. ولما كنت أفصح عن ذلك لبعض أصدقائي من الصابرين في العلاقات النسائية.. كان يقول لي: من طبع المرأة أن تخلف الميعاد.. وإلا لم تكن إمرأة! وكنت أضيق بهذا القول.

وكنت أقول أنني لم أعرف فيما عرفت من البنات من تأخرت عن موعدي. كما لا أعرف أنني تأخرت عن موعد أحد.

وفي ركن من الكافتيريا المزدحمة أخذت مكاني.. وشعرت بالندم لاختيارنا هذا المكان.. الذي كنت أتصوره أخف من ذلك قليلاً خصوصاً وأن موسم السياحة هابط في هذه الأيام. كما أن الطلبات غالية بالنسبة لأولاد البلد.

ولكن بارك الله في الانفتاح الذي جعل الكثيرين من القادرين على تكاليف التردد على هذه الأماكن والاقامة فيها. وكنت من حين لآخر أنظر إلى ساعتي. وقد طلبت طلبين ومرت ربع ساعة، ثم نصف ساعة ثم ساعة ولم تحضر برغم أنني أخفيت الساعة في جيبي حتى لا أنظر فيها وأجدها كما لو كانت لم تتحرك أبداً.

وكنت فيما مضى أضج بربع ساعة تأخير.. فما بالك بالساعة.. ولكن كنت أطمئن نفسي بهذا القول: إذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد رفع الحد عن السرقة في عام المجاعة الشهير بعام «الرمادة» فكذلك رفع العتاب عن التأخير في زمن محنة المرور التي أصبح معها المشوار الذي كان يستغرق دقائق يتطلب ساعات!

ولكنني في نفس الوقت كنت أقول: هي صاحبة سيارة كما قالت لي في التليفون.. ولماذا لم تحسب حساب الطريق في زمن محنة المرور؟!.. وأنا أفعل ذلك..

وكان عباس العقاد يفعل ذلك. حتى أنه كان يصل في كثير من الأحيـان قبل المـوعد بكثـير. . لأنه يعمـل حسـابـاً للطريق في زمن «الهنا» فتكون النتيجة أن يصل قبل صاحب الموعد بساعة كاملة.

فلماذا لم تفعل ذلك لو كانت حريصة؟!

وأعود فأقول: أعطها فرصة. ربما حدث ما يدعوها للتأخير.

ولكن بدأ الشك الحارق يطل بـرأسه. . وأعتقـد عن ما يشبـه اليقين أنني «شربت المقلب». . وربما أرادت أن تعاقبني على ما فعلته فيها بالمطار من تجاهل متعمد تحسه المرأة الذكية بغـريزتهـا وكان من مـظاهر ذلـك عدم الاهتمـام وأخـذ السجـائـر من غيـرهـا وشـرب الليمون. . إلخ!

وانصـرفت من المكان وأنـا أغلي من الخجـل والثـورة! وألقيت نفسي بكاملي على السرير دون التفكير في تغيير ملابسي.

وأقول لنفسي آه لو تحدثت. . ولعلها تتحـدث وأقول لهـا: أنا آسف لأنني لم أستطع الذهاب بسبب مشاغل العمل الـطارىء. كما أنني لا أعـرف تليفـونها لـلاعتـذار. . ولم أحـاول في يـوم معــرفـة تليفونات النساء خشية الاحراج أن يرد على تليفوني شخص آخر. . فماذا أقول له؟!

ودائـماً مـا أفضـل أن يتصلن بي في بيتي. . لأنني الـوحيـد فيـه الذي أرد على التليفون. وهذه خصـائص العازب العـاشق! ولكنني

طردت ذلك الخاطر بأن أكذب عليها. . ولكن لا بد للثأر من كرامتي أن أقول لها ذلك!

وجاء التليفون ولم تعطني فرصة للكذب عليها. . فبدأت معتذرة عندما شاهدتني وكان يجلس بالقرب مني أحد المحافظين السابقين وهو زوج خالتها! وكان ذلك صحيحاً. . فأنا أعرف ذلك المحافظ منذ أن كانت صوره مقررة على الصحف!

وكانت سعادة الدنيا قد غمرتني وغسلت كل ما بي من الغضب في أنها لم تعطني فرصة الكذب. . وإلا لسقطت هيبتي في بئر ليس له قرار. . ومضيت أشكر الله أنه أنقذني من نفسي.

وكنت أقول أنت الذي لم تكذب. . لماذا تريد الكذب وكنت أعيب على الكاذبين. . فأكون من الكاذبين؟! وأمضيت حديثي معها بالشكر في داخلي لله الذي عصمني. . وفضل الله قد سبق! وفي نهاية الحديث اتفقنا على موعد آخر في نادي الجزيرة لأن فيه المتسع والأماكن الفسيحة. . وراعيت أن يكون اللقاء متروكاً لها. . وبلا عقد ودعوى الحديث عن الانشغال لكيلا يصرعني قلق الانتظار!.

الفصل الثاني

كانت الساعة قد أوشكت أن تقترب من السادسة في نادي الجزيرة من نهار اليوم التالي حيث حددت هي المكان والزمان ووافقت عليهما بلا تردد أو مناقشة.

وذهبت كالمعتاد قبيل موعدي، واحمل في نفسي القليل من الاضطراب. ولكن في كل الأحوال كنت أهدأ من الأمس، وكان من الطبيعي أن أفشل في محاولات النوم بعد الغذاء كالمعتاد. وهذا ما يسبب لي بعض التوتر في الأيام العادية.. فما بالك وأنا على موعد مع الجمال كله!.

وكان في نيتي أن تكون لديَّ بعض الحكايا التي كان يسعد بسماعها بعض الأصدقاء.. ولكنني رفضت فكرة الكلام الجاهز، وفضلت أن يكون الحديث.. ابن ساعته.. كما يقولون!! وجاءت الساعة السادسة، ثم السادسة والربع.. وخلعت ساعتي من جديد ووضعتها في جيبي مثل اليوم السابق.. ونظري يدور في كل اتجاه.. ويقع على الدكتور فخري عبد الحميد الطبيب المشهور.

وكنت لأول مرة أراه في النادي وتربطني به علاقة بسيطة أشبه

ما تكون بالعابرة. . والذي لوح بيده بالتحية على البعد. . فرددت التحية. . فإذا به يقترب للسلام وحديث قصير لم يتجاوز الدقيقة يسألني فيه لماذا لم يرني في بيت أحد الأصدقاء. . وهو البيت الذي شاهدته فيه لأول مرة. .

وأذكر انني قلت له ربما بسبب عطل تليفوني منذ أيام في انني لم أتلق دعوة من ذلك الصديق. . ومضى كل منا يجلس بعيدا. .

وعدت إلى ساعتي أنظر فيها بقلق. . وعيني تدور بعصبية. . ورحت أقطع الوقت بالتدخين والاسراف فيه. ونذر الغضب والخوف بدأت تطل في داخلي. . وتنمو في صدري كأشجار غريبة. ولم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من الانتظار ساعة. وتأكد لي هذه المرة أنها تعمدت ذلك. وبدأت أشك في حكاية الأمس برغم صحتها وأقول لنفسي: لماذا لم تستخدم أية إشارة لي في الكافيتريا. أو إرسال أحد العاملين في الفندق لي بعد ما تشير لهم علي؟. .

ولم أذهب إلى بيتي. . ولكن تحدثت من النادي إلى أحد الأصدقاء في الزمالك. . . وأمضيت الكثير من الوقت عنده نتحدث. . واعتقد أن الغضب كان يلفني. . ويأتيني من كل جانب. . وتمتد أغصانه في داخلي. . ولكنني حاولت السيطرة عليه. . وساعدني في ذلك جلسة الصديق الذي وجدت بيته عامراً بالأصدقاء ومن بينهم حسناء أخرى أعرفها. . وكنت لأول مرة أشاهدها تعزف على البيانو. . وكنت في حالة من الطرب إلا قليلاً

بسبب الـذي في داخلي بـرغم مهارة العـزف. . وحلاوة النغم وهي تعزف مقطوعات من موسيقى سيد درويش. . طلعت يا محلى نورهـا شـمس الشموسة. .

وكنت أردد في نفسي: شمس الشمـوسة طلعت. . وغـابت. . أو غابت قبل ان تطلع. .

ولكنني أصبحت أهـدأ قليلاً. . بـدليل انني استبـدلت ملابسي فور ذهابي إلى البيت والقيت بنفسي في الفراش ومعي قرار وهو انهاء العلاقة مع هذه السيدة. . ويكفي ذلك. . وبلا غضب. يكفي أن نقول لها: انتهى كل شيء ونغلق السماعة في وجهها. . ونستريح!

وقبل منتصف الليل بقليل استمعت إلى التليفون والذي أصبح فرداً من أفراد القصة. . ولعله يكون البـطل. . وكان لـدي الشعور الخفي بـأنها هي. . ولذلـك ترددت في الـرد قليلاً بسبب الحيـرة في اتخاذ قرار: هل اغلق السماعة في وجهها. . أم أثور عليها؟!

ورفعت السمـاعة في هـدوء. . وبالفعـل كانت هي: وإذا بهـا تقـول: انت إيه حكـايتك. . مـالك انت ومـال الـدكتـور فخـري عبد الحميد؟!.

فقلت في هدوء: هذا كلام ليس لي ولكنه لـك. . مالـك انت وماله؟!

فقالت: هل تعرف انه عمي؟!

وذهلت للمفاجأة . .

وقلت في هدوء أيضاً: يبدو اننا محاصرون بعمك والمحافظ السابق . .

وسألتها في هدوء :

لماذا لم تظهري . . وتمري من أمامي وتعطي أية إشارة دون كلام . . أو حتى بالتجاهل وتذهبي إليه . . فأعرف أنا الموقف .

قالت: فعلت جزءاً من ذلك ذهبت وجلست مع أفراد أسرته ولما أجلسوني بجوارهم فلم يكن وجهي لك . . ولما عدلت من جلستي بحجة الضوء الذي يضايقني . . فلم تستطع أن تراني بسبب دخولنا في الليل . . ثم انك لم تحاول الاقتراب منا . . وفضلت الجلوس بعيداً وكنت «صعبان علي» وأنا شايفاك عصبي وعمال تبص في الساعة وتدخن في غيظ ! !

فقلت في هدوء: يا هانم أنا أجلس بعيداً حتى لا أقع في مأزق الأمس وهذا ما اتفقنا عليه .

فقالت: إن عمي لم يحضر إلى هذا النادي منذ زمن وربما يزوره مرة في السنة. ولكن جاء هذه المرة لرؤية أحد أصدقائه القادمين من الخارج . .

فقلت لها في هدوء: يادي السفر والداخل والخارج . . والعم والخال . . واستطردت وقد علت نبراتي قليلاً فيما يشبه الحسم

وقلت: يا ست هانم اللي يطلع من داره ينقل مقداره. . وأنا لن التقي بك بعد اليوم. . وإذا أردت اللقاء من جديد فسيكون ذلك في بيتي. . هذا قراري الأخير!!

فقالت بحسم أيضاً: لا. . مسألة البيت دي شيلها من دماغك.

فقلت: هي لم تكن في رأسي حتى أشيلها. . ولكنها فكرة لم تزل واقفة على باب رأسي. وأسبابها معروفة وهي إننا إتفقنا أن نلتقي في الأماكن العامة. . ولكنك محدودة شرقاً وغرباً بأهلك ولم أعرف بقية حدودك الأربعة!

قالت: يبدو أنك شاطر في الجغرافيا.

وسألتها فجأة: هل تخرجت من الجامعة؟!

فقالت: ولماذا تسأل؟

فقلت: ردك السريع وحكاية الجغرافيا دي تجعلني أسأل.

فقالت: اطمئن، أنا خريجة تجارة.

فقلت: أي جامعة؟

قالت: ودي تهمك في إيه؟

فقلت: أهي دردشة!

قالت عين شمس. وربما تسألني دفعة كام أقول لك منذ ثلاث سنوات وست بيت. ولم أنجب أطفالاً!

قلت: ربما فكرت أن أسألك في ذلك. . ولكن لن أفعل وأسبابي في ذلك هي. . حتى لا تظني أنني أريد أن أعرف سنك.

فقالت: ما زلت في المرحلة التي لا أخفي فيها سني فأنا سأكمل عامي الخامس والعشرين بعد أيام.

فقلت: بعد أن طال بنا الحديث. . ما دمنا فشلنا في اللقاء العام. . فلدينا هذه الوسيلة وهي التليفون لتقولي ما تريدين قوله. وما زالت الفكرة المعلقة بباب رأسي موجودة وهي حضورك إلى بيتي. .

ـ مسألة بيتك غير واردة حتى لا تظن بي الظنون. . كل ما في الأمر أن لدي كلام أريد قوله من باب «الفضفضة» ولا أدري لماذا اخترتك لأقول لك. . والظروف قد حالت دون ذلك، وواصلت الحديث:

أصل أنا يا سيدي.

وشعرت بأن التليفون اغلق في وجهي فجأة وانتظرت. . ولكن لا فائدة!

وعاد التليفون بعد أكثر من ساعة، وبسرعة رفعت السماعة وبدأت قائلاً: أيوه يا ستي.

وإذا بالمتحدث أحد الأصدقاء ويقول: مين دي اللي ستك.

فقلت له: ساعات أقلد بعض أصدقائي والذين من طبعهم يردون في التليفون بهذا القول.. وأحياناً يقولون: أيوه يا عمتي.. وأيوه يا خالتي.!!

ومضت الليلة بلا متاعب باستثناء بقايا توترات المواعيد. ومضايقات الظروف.

ومضت الأيام وأنا بين منتظر. وبين صراع داخلي في محاولة نسيانها.

وفي إحدى الليالي استمعت إليها.. وكانت حدة التوتر قد خفت. وقد استرحت إلى صيغة أجعلها غير موجودة حتى إذا وجدت. وتستطيع أن تكون المسألة عادية. وحاولت اقناع نفسي بأنني من الأفضل أن أخرج من تأثير ذلك الجمال. وياما جميلات.. ونهاجر إليهن بالعيون والأشواق فقط.. ويمكن أن تكون صاحبتنا التي لا أعرف أسمها من ذلك النوع العابر وإن كان جمالها هو جمال الدنيا كلها في واحدة.. وهي تعرف ذلك..

ودارت هذه الخواطر سريعة في ذهني وأنا أرد عليها في هدوء. ولم أشأ أسألها لماذا انهت؟ المكالمة.. لأن المسألة لا تحتاج إلى تفسير.. فهي تقول أنها زوجة.. وربما شعرت بأن زوجها يفتح الباب.. والأمر في نظري لا يخرج عن ذلك.. لذلك لم أسأل.

فقالت لي من تلقاء نفسها . . على فكرة أنا ربما لا أستطيع الحديث معك تليفونياً كثيراً بسبب بعض الظروف التي لا تعلمها ويمكن أقفل السكة في وشك فجأة فاعذرني ولا تغضب، وإذا ساعدتني الظروف على الاتصال بك من جديد سأفعل. وتصبح على خير. . أحسّ الأسانسير وقف وسامعة حد يفتح بابه. وكانت هذه المرة أخف!

ووجدتني استريح لفكرة إذا حضرت كان حضورها. . وإذا غابت كان غيابها، «ويا دار ما دخلك شر»! وسارت حياتي عادية بعد ذلك إلا أن رغبتي في رؤيتها والحديث معها كانت تزورني، وكنت أريد أن أعرف ما بها ولكن ما حيلتي. . وأنا في كل ما توصلت إليه كان من أجل راحتي!

وعندما كان يأتيني حديثها مقتضباً أفرح وأغضب. أفرح بأنها لا تزال تصر على المعرفة برغم انها لم تقل شيئاً حتى الان، وأغضب لأن طريقتها في الحديث تجعلني اتعذب مع أشواقي وخيالي.

وكثيراً ما كنت أقول: لماذا اختارتك. . ولماذا هي حريصة على الحديث معك. ولماذا تقول حبيت أقول: صباح الخير في هدوء وزوجي في الحمام.

وحبيت أقول تصبح على خير وزوجي يجلس مع أصدقائه في الصالون.

وما آخر كل ذلك مع أشواق اللقاء.. والمحاذير فيه.. وعدم الرغبة منها أن تجيء إلى بيتي..

وتواصل الأيام مرورها.. واعترف أنها استولت على فكري وعلى كياني.. وكنت أتخيل جمالها.. وكنت أقول ربما كان هذا الجمال مسكوناً بالمحنة.. وفي العيون الجميلة الأسى كله ولا تبوح.. ولقاؤنا الأول كان ليلياً، والخوف من فضيحة مشاعري جعلني أدير ظهري لها عند الحديث.. ولم ألمح سوى وجهها الجميل الذي لم يظهر عمق الأسى فيه!

وأصبحت أنا مسكوناً بالوساوس والهواجس والرغبة في اللقاء!

ويحدث مختار صديقه أحمد.. ويعيد عليه القول: كنت أخالفك في الحب.. فأقول إن الحب وعلاقتنا به علاقة سفر ورحيل ومحطات ومسافات قد تقصر وقد تطول وأنت تقول: يبدأ الفراق في لحظة اللقاء كأمواج البحر وعلاقتها بالشاطىء عندما نلتقي به.. وحتى هذه اللحظة فالقول قولك يبدأ الفراق عند اللقاء.. وتصدر تنهيدة طويلة من مختار عبد الله وصديقه أحمد لا يزال يستمع!

ويسأل مختار في حيرة: ماذا أفعل.. شيء غامض في نفسي يحدثني بالآمال!!

ويقاطعه أحمد قائلاً: لا تعول كثيراً على هذه الآمال لكيلا تصدم.. واستمر بلا آمال. وانتظاراً لحديثها

فيقول: أكذب لو قلت أنني أصبحت غير مسكون بها.

فيقول أحمد: انساها.. واقطع علاقتك معها.

ويقول مختار متسائلاً: كيف أنساها وهل المسألة بهذه البساطة؟.. وهي تذكرني بها عند حديثها التليفوني القصير. وبماذا تفسر ذلك؟!.. ثم يقول مختار لنفسه دونما انتظار لرأي صديقه أحمد.. لا يمكن أن يكون ذلك إلا اهتماماً.. والحب في أوله اهتمام.. وفي آخره حبابة وهيام!.. وان كنا لم نصل بعد إلى هذه الدرجة.. بل لم يزل بيننا وبينها مراحل.. من الود والصداقة والألفة والاعجاب والتعود، والغيرة. ثم الهوى والعشق والوله، والوجد والتتيم. وكل هذه درجات للحب، ونحن في أول الطريق أو هكذا أظن.

فيقول أحمد لي في اختصار: أنت خيالك واسع.

فأقول: إن الصدق في الاهتمام بهذه الجميلة يجعل الكثير من صور المستقبل تتتابع في رأسي وتتدفق المشاعر بالأمنيات في قلبي.

فيقول أحمد ساخراً:

أدركني يا منى عيني!.. ثم يشعل سيجارة له ولصديقه مختار.

مختار: انت رايق!

أحمد: حدد علاقتك معها، واسألها هي عاوزة إيه بالضبط.

مختار: حسناً سأفعل عند أول حديث.. وهي مرة تفوت ولا حد يموت.. واقطع الشك باليقين..

وتمضي به الأيام بالحيرة فيما يفعل. ولم تعد تتصل به. وتشتعل مشاعره غضباً.. ثم يعود يحدث نفسه.. ويسأل:

لماذا أغضب. يمكن اعتبار أن المسألة انتهت.ربما كانت نزوة وعدلت صاحبتنا عن قرارها. ولكن يعود ويقول: كنت أريد أن أقول لها كلمة أخيرة.

ثم يعاوده الشك من جديد. ربما تكون هذه الجميلة مغرمة بتعذيب الناس.. فتسوق عليهم الدلال وتتركهم للخيال الحارق؟! وتعيش هي في نعيم اليقين.. والهواية؟!

ولكن قلبي لم يطاوعني في هذا التفسير.

وأعود وأحدث نفسي وأسأل: ما جدوى الكلمة الأخيرة التي أريد أن أقولها وأنهي العلاقة؟!.. لا يوجد أحد في هذا الكون من قال كلمته الأخيرة. وجميع الذين ماتوا ورحلوا عن الدنيا ماتوا دون أن يقولوا كلمتهم الأخيرة بدليل أنهم لو امتدت بهم الحياة دقائق أخرى لقالوا كلاماً جديداً. وعبثاً ذلك الذي نراه في الأفلام والمسلسلات عن خرافة الكلمة الأخيرة عندما نجد ذلك الذي يجمع أهله أو زوجته وأولاده أو محبوبته ثم يقول كلمة وبعدها يموت!!

الحيـرة. . والتـردد همـا أسـاس فكـري في هـذه الأيـام. . ولا أعرف ماذا أفعل؟ . . هل اجلس في البيت انتظاراً لمكالمة على هواها هي. . أم ابتعد حتى تيأس؟!.

ثم أقـول لنفسي: مـا هي كـل هـذه الهـواجس ودع الأمـور تسير. . واترك الأمر لمستقبل الأيـام. . ثم أنك ـ أحـدث نفسي ـ لم يحدث لك ذلك الذي يسمونه الهزيمة في الحب. . فأنت لم تزل عـلى البر ولم يصبك بلل مياه العاشقين ولكن فقط أصابتـك هواجسهم! ثم أعـاند نفسي فـأقول: لا بـد من لقـائهـا. ولكن كيف؟ ويقـطع تفكيـري جرس التليفـون وأسرع إليـه. . المتحدث رئيس الاذاعـة ستسافر غداً مع وزير الخارجية في رحلته الآسيوية. وشعرت بفرحة المفـاجأة. وأنـا أعرف أن السفـر بالـدور. . وهذه الـرحلة هي دور زميلي شكري فـما الذي حـدث وأسأل رئيس الاذاعـة. فيقول لي: عملية الزائدة المفاجئه.

واتنهد: الحمد لله. ويبـدأ قلق واكتئاب من نـوع جديـد ذلك الاكتئـاب الذي يصـادفني قبيل السفـر حتى ركوب الـطائرة وبـرغم فـرحة السفـر ولكنها دائـماً مقرونـة بهذا الشعـور الغريب. الفـرحة للسفر والكآبة. . والفرحة بالعودة والكآبة أيضاً.

أحداث الرحلة وساعات العمـل والسفر من جـديد. . سحب الكثير من الأفكار عن سيدتي الجميلة. لم يعد هناك وقت أذكرها فيه إلا في لحـظات عابـرة وأنـا أحلق ذقني في الصبـاح وقبـل النـوم. .

ويكون الارهاق هـو ذلك الشيء الـذي يهزم الأرق والتفكـير فيها. وكذلك الصباح الجديد يأتي بما فيه من أعمال جديـدة.. وتأمـلات الدنيا البعيدة كل ذلك يصرفني عنها.. ثم التحضير لـدائرة إذاعيـة من إذاعة كل بلد ومتـابعة المحـادثات وكتـابتها وارسالها. كـل ذلك جعـل المسـاحـة في عقـلي وشغفي بهـا تضيق. حتى انتهت الـرحلة وعـدت إلى بيتي بـالارهـاق.. وذهبت إلى عمـلي وقـد خفت حـدة التفكير فيها. حتى جاءت لحظة وجدت أن التفكير فيها قد يعـرض مستقبلي للخطر. فـلأول مرة أسمـع من رئيسي في العمل أن هنـاك اتجاهاً لمنعي من قراءة نشرات الأخبـار في الراديـو. ولما سـألت عن السبب قيـل لي: أن صـوتـك فيـه أسى وهـدوء وشجن لا يصلح للنشـرة الاخبـاريـة التي تتـطلب الأداء الـرصين بـلا مشـاعـر أو انفعـالات. وعـرفت أن الجميلة قـد تسللت في بـدني حتى النخـاع وسرت في دمي ووصل الأمـر إلى صوتي. وكـان علي أن أجـاهد أن أنسى. وأن استحضر نفسي عند قراءة النشرة ولكن جاءتني ملاحظة من رئيسي في العمل تقول: من المـلاحظ أنك سـاعة قـراءة النشرة أنك تقاتل.. وتخطب ولا تقول الأخبار بتجرد واتزان!!

وعرفت علتي وعاودتني الحيرة.. هل أطلب اجازة حتى أبرأ أم استمر حتى أحاول أن أنسى وأحـاول أن أعالـج مسألـة صوتي عنـد قراءة النشرة.

وبت ليلتي قلقـاً على مستقبـل أيامي ولا أعـرف ماذا أفعـل..

الجرس يدعوني للرد على التليفون. . والمتحدث هي : الحمد لله على السلامة قالتها في هدوء. ورددت عليها وأنا اتصنع الهدوء. ثم سألتها أنت فين. فقالت في هدوء: عايشة!

ومرة أخرى تصنعت الهدوء. بقالك زمان قبل السفر.

في هدوء أيضاً تقول: الظروف!

تزداد حيرتي بين الغضب والرغبة في أن أقول ما أدعيه بالكلمة الأخيرة. . ثم تستمر لحظة صمت على التليفون وأنا أصارع نفسي.

. . وأقول لنفسي: هي لم تخطىء حتى أقول لها ما أريد أن أقوله. ربما تكون لديها ظروف. . وكل ما في الأمر أن المسألة وصلت إلى هذا الحد بسببي أنا لا بسببها هي. وأقول لنفسي مواصلاً الحديث إليها ربما كان خيالي وجمالها مسئولين عن سبب ذلك. .

فتقول في هدوء: ساكت ليه؟

أنا: أقول إيه؟

هي: اتكلم!

أنا: ليس لدي ما أقول. . ثم أقول بصوت به انفعال قليل أنت التي تريدين أن تتحدثي وتحكي.

هي: وأنت.

أنا: لا شيء. طبعاً.

وأسمع أن السماعة قد وضعت على التليفون من جديد.. ولم أنم ليلتها.. وسألت نفسي:

هل غضبت يا ترى عندما قلت لا شيء.. أم لأنها تخشى مؤسستها الدستورية وسلطاتها الشرعية المتمثلة في زوجها. ويجوز أنه قد حضر ففعلت ما سبق أن فعلته!

وأشرقت عليَّ شمس الصباح بالظلام والألم. ووجدت نفسي أتحدث بالتليفون وأطلب إجازة عارضة. واستعين بالمهدئات وأنام!

وفشلت المهدئات في اعطائي نوماً عميقاً. ولكنني كنت أقل قلقاً، وكنت من الظاهر أبدو هادئاً شارداً وفي داخلي معذباً، ثم رحت أهدىء من نفسي، وأتحدث إليها أيضاً.

فأنا أرى أنه من السهل انهاء العلاقة بكلمة غاضبة، ولكن من الصعب انهاء المشاعر تجاهها أو التفكير فيها. والمسألة ليست بالبساطة التي يتصورها صديقي أحمد.

ان هناك شيئاً في داخلي يحدثني عنها حديثاً غامضاً.. أشبه بما يحدث في الأحلام.. ومن الصعب أن أذكر تفاصيله في حالات اليقظة.. ثم إن قلبي ينبض نبضاً خاصاً عند سماع صوتها.. وهذا لا يحدث إلا في حالات الحب.. ولكن الذي بيني وبينها لم يكن حباً.. ربما كانت أشواقاً إليها.. وجاءت هذه الأشواق بتأثير

الانطباع الأول. . ويبقى سؤالي معلقاً على باب عقلي. . من هي؟. . ومن أنا. . وما هو تفسير حالتي؟. . على وجه التحديد لا أعرف. . وكل ما أعرف هو ما أنا فيه من قلق مدمر!

وأعيش بين اليأس والأمل. . وأتعامل معها بالوداعة وادعاء الحكمة ووحشية الأشواق إليها تعربد في داخلي.

ويأتيني صوتها عبر التليفون في موعد لا أتوقعه. . وتتحدث قائلة:

حبيت أجرب التليفون، ولدي إحساس أنك في البيت. . وإذا لم أجدك. . كنت سأتحدث في وقت آخر.

فقلت لها: أن علاقتي بك حتى هذه اللحظة لا تستخدم فيها سوى حاسة السمع مثل العواجيز في الحب!

فقاطعتني: حب!

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أنطق بها بهذه الكلمة، وجاءت على لساني ويعنيها قلبي. ولكن لو فكرت ما وردت على لساني حتى لا أفضح نفسي منذ البداية الأولى. .

ولكنني تصنعت اللطف وقلت لها: هذه نكتة فأنا أعرف موسيقاراً مشهوراً جداً، وكان مشهوراً بغرامياته، وأصبح الآن فوق السبعين. . ويقول عن نفسه لم يعد لي من زمان الحب سوى اذني. . أسمع فقط . . أما بقية الحواس فأصابها «العطل» بفعل

الزمن والشيخوخة. . حتى النظر فلم أعد قادراً عليه! ولذلك أصبحت علاقتي بك قاصرة على الاستماع في التليفون والذي أصبح القاسم المشترك الأعظم بيني وبينك.

وسألتني سؤالاً لم أكن أتوقعه: لماذا لم تتزوج؟

قلت: ولدي بعض انشراح الصدر في أنني نجحت في «مسح» كلمة الحب التي جرت على لساني.

يا هانم أنت تريدين أن تقولي شيئاً. . ولم يحدث حتى الآن انني استمعت منك إلى شيء. . حتى التليفون بسبب ظروفك لم يمكنك من قول ما تريدين!

أما عن زواجي سيتم عندما أكون قادراً على ذلك نفسياً واقتصادياً.

فقالت: لك شروط في الزواج؟

قلت: أبداً والزواج في نظري رجل وامرأة. . وإذا وجدت المرأة التي أريد الزواج منها سأقول لها: فلسفتي في الزواج وهو البعد ما استطعنا عن الموروث القديم في التجهيز والفرح، والمعازيم. . والفرش. والكوشة. لأن كل هذه الأمور لا تصنع سعادة، والسعادة هي أن أصحبها من بيتها إلى بيتي في هدوء. .

ولكنني أعرف أنه لا توجد فتاة توافقني على ذلك، فهي ترى أن مسألة الفرح ضرورية لأنها ليلة العمر بالنسبة لها، ومسألة

التجهيز ضرورية، لأنه بعد الزواج يكون من الصعب شراء كل ما هو مطلوب. فهذا منطق البنات.. كل البنات.. أما أنا فالبساطة هي منهجي في الحياة.. ولو جئت إلى بيتي فلن تجدي سوى ذلك الحصير الشهير الذي يعرفه كل أصدقائي وبجواره التليفون، وعدد من القلل أشرب منها مثلما كنت أفعل في القرية..

قالت: بدهشة: معقولة دي؟!

قلت: يوجد سرير استخدمه في الشتاء فقط.. أما بقية الأيام فالحصيرة مسكني وأجد عليها راحتي!

قالت: غريبة.. أنا أتصور عكس ذلك..

قلت: من حقك أن تتصوري ما شئت.. ولكن هذه الحقيقة وعليك أن تتأكدي إن شئت.

قالت: ألا يوجد كرسي للجلوس عليه؟!

قلت: الحصيرة أنسب مكان.. كما أنه يوجد كرسي وحيد للمكتب.

قالت: وأصدقاؤك.. يجلسون على الحصيرة.

قلت: أصدقائي يعرفون ذلك.. ويستريحون في ذلك.. وكله على الحصيرة يابا.. كله على الحصيرة يابا.. كله على الحصيرة.. زي كله في المواني يابا.. على رأي عفاف راضي.. كله في المواني!

قالت: سأحضر إليك غداً في التاسعة صباحاً فهذا أنسب موعد لي حالياً.. وسألتني: هل يناسبك؟

فقلت: كل وقت تحضرين فيه فهو مناسب.

وشعرت مرة أخرى بالخجل من نفسي في الاعلان عن حقيقة لهفتي عليها. ولكن هذا ما حدث. وأعطيتها العنوان.

ومضى نهار ذلك اليوم ثقيلاً، وغادرت بيتي لأنشغل في أي شيء.. الذهاب إلى النادي.. قراءة الصحف.. بعض الكتب وقد فشلت في قراءة واستيعاب أي شيء.

وفكرت في العودة للعمل في هذا اليوم.. ولكن أنا أخبرتهم بأني مريض. وذاهب للطبيب. ثم أنها ستحضر غداً.. وربما تأخرت، الأمر الذي يجعلني لا أذهب للعمل..

فلا مخرج لضياع الوقت سوى بالسير في شوارع المدينة والسير في النادي، والسهر مع الأصدقاء.. حتى يجيء الصباح. والتقي بمعذبتي القادمة.

ولم أكن في حاجة إلى الاستيقاظ المبكر في هذا اليوم، برغم السهر طوال الليل، أفكر فيها برغم حديث الأصدقاء وبرغم الذهاب إلى ملهى ليلي بعد منتصف الليل للفرجة على «الغوازي» ولم تكن متعتي بالفرجة كاملة كسابق عهدي، بسبب كثرة التفكير فيها، حتى لما ذهبت إلى بيتي قبيل الفجر كانت معي في كل

شيء. . في دخـان سجـائـري، وفي نبض قلبي. وفي تفكيـري لمـا سوف يجيء به صباح اليوم.

ولمـا ذهبت إلى الحمـام وجـدتني أغني ببعض أغنيـات فـرقـة الموسيقى العربيـة. . وأردد موشـح ملأ الكـاسات لمحمـد عثمان. وكذلك دور أتـاني زماني بمـا ارتضى فبالله يـا دهر لا ينقضي. . ويـا ليلة العز دومي لنا. . فإن الحبيب علينا رضى.

ولما فتحت «الشغالة» الباب. . قلت لها وأنا في الحمام:

أنـا النهارده ورايـا مشوار وهتغـدى بـرة. . ومش جـاي إلا في الليـل. . وأنت اجـازة النهـارده. . وذهبت بـلا منـاقشـة واكتفيت بالافطار بيضة مسلوقة وكوب من الشاي!

وفي تمام الساعة التاسعة دق جرس الباب، وانتفضت مسرعاً، مع الدهشة لدقة الموعد. . فهي ليست مثل معظم النساء، وفتحت وتسبقني فـرحتي، وصـور لهـا في خيـالي عن شكلهـا، ومـلابسهـا، وكانت المفاجأة أن أجد شقيقي الكبير هو الذي بالباب!

وباحباط شعرت معه أن كل ما بـداخلي ينهـار. . وبكلمات لا يقوى لساني على نطقها قلت: اهلاً يا إبراهيم!

ولاحظ شقيقي الذي أحبه كثيراً التعب الشديد وهبوط صوتي وسألني: مالك!

قلت أبداً: تعبان شوية.

قال: سلامتك..

قلت عن إذنك سأذهب إلى البقال دقيقة واحدة..

ومضيت إلى أول الشارع انتظرها، وقدماي لا تقويان على حملي. وكنت ألعن الظروف. وأسأل: ما الذي أتى بأخي من القرية في هذا اليوم. ولماذا لم يتصل بي قبل ذلك كعادته؟.. وانقطعت تساؤلاتي الساخطة على قدوم أخي الذي أحبه كثيراً وأفرح به.. عندما هلت المحبوبة التي لا أعرف اسمها ولم أسألها عنه.

وبعصبية قلت لها: أخي جاء من القرية فجأة. وأنا شديد الأسف.. ويمكن الاتصال بي لأشرح لك الظروف.. وصافحتها وأنا في محنة.. وهي في دهشة.. وسألت: سيظل طوال اليوم.. فقلت بعصبية أنا لا أعرف شيئاً!

ولم استطع الانتظار معها على الجانب الآخر من الطريق حتى تمرق بسيارتها التي أراها لأول مرة. وقادتها بعصبية أشبه ما تكون بقيادة الشباب الطائش! وعدت إلى البيت ومعي كل غضب الدنيا وهمومها وبعض علب السجائر. ولكنني فيما يشبه الاستسلام للقدر رحت أتحدث مع أخي في هدوء.. عن تأخير الشغالة لاعداد الافطار له.

فقال: فطرت والحمد لله.. واستطرد يقول: أنا عيان منذ أيام ولما اشتد المرض.. وفشلت في الاتصال بك قررت أن أحضر إليك

مبكراً قبل الذهاب إلى الشغل لعرضي على الطبيب . .

فقلت : سلامتك . . وأنا أيضاً احتاج إلى طبيب . فسألني في هلع : فيه إيه كفا الله الشر . . أنا شايفك مش عاجبني ولونك مخطوف .

قلت : أبداً . . أبداً . . شوية ارهاق!

فقال : خذ اجازة . . قالها بحنان الدنيا كلها . . فأخي هذا يعتبرني ولده البكر .

فقلت بأسى : أنا في إجازة!!

وسألت أخي برفق حزين عن أحواله : وكنت أقول : أنه من الأفضل دائماً الاتصال قبل الموعد للحجز مع الأطباء . . ولكن أنا وأنت على الله!

ومضت أيام لم تتصل . . وأنا مع اليأس لا أنتظر . حتى جاءني صوتها ذات مساء . ووجدت نفسي انطلق في كلام مسترسل : الحمد لله . . أخي سافر . . وكان عيان . . وفشل في الاتصال التليفوني . . ومش قلت لك : إنه لم يعد يبقى لنا من زمن الحب إلا حاسة السمع فقط مثل صاحبنا الموسيقار العجوز ، وكنت أريد أن أجلس معك . . وأسعد قلبي ونظري برؤ يتك . . وقد رأيتك «بهية الطلعة» مثل الصباح الجميل ، وفيك اشراق الصبا . . وكأنك آتية من زمان غير الذي نعيشه . . كل ما فيه صناعي ومغشوش حتى وجوه

النساء. . أصبحت أجدها كأزهار البلاستيك. .

وقلت: كان «هلالك» الجميل في الطريق مثل القمر. . وكان في وجهك السحر. . في عينيك الحذر!!

فقاطعتني: إيه دى كله. . كيف عرفت كل ذلك!!

قلت: أنا الذي أصبحت في حاجة إليك أكثر من حاجتك لي!

سأتحدث معك بلا حذر أو تردد. . فأنا أشعر تجاهك بعاصفة من المشاعر. . مثل عاصفة العطر التي ملأت الطريق عند قدومك السعيد. . والذي كان يمثل لي الفرحة والاحباط واليأس! ولكن صوتك هذه الليلة جدد في نفسي الأمل!

عندما نلتقي سأقول لك الكثير. . سأقول قبل أن أسمعك. . فأنا لا يمكن بعد اليوم أن أضع قيداً على حديثي وعلى مشاعري تجاهك. . وأي شيطان ذلك الذي يضع للعواطف قانوناً. . والعواطف مثل العواصف. . لا يمكن أن نفكر فيها بهدوء أو حذر. .

فقالت في هدوء: تاني!

فقلت في حماس: تاني وتالت. . ولا يمكن أن نفكر فيما حدث. . نفكر في الغد. . واللي راح. . راح!

وفي هدوء أيضاً قالت: أنا لن استطيع مقابلتك إلا في مساء

يوم الخميس. . ثم قالت. . وأين نلتقي يا ترى هذه المرة بعيداً عن أهلنا. . ومعارفنا؟!

فقلت: هنا. . هنا. . في بيتي. . وأنا في يوم الخميس كنت «عازم» أحد أصدقائي للسهر في فرقة الموسيقى العربية. . إنما سأعتذر له أو أعطيه التذاكر هو ويذهب هو. . ويدعو هو من يشاء.

فقالت: أنت بتحب الموسيقى العربية. .

فقلت: بحبك أنت. . وشعرت بقدر من الخجل الذي ساعدني التليفون بعيداً عنها وعن عيونها في البوح بما في صدري. . وإن كنت أعرف أنها قد عرفت ذلك. . فقلوب النساء ونظراتهن. . تعرف بالفطرة كل ما يجيش في قلوب الرجال. . والمرأة أكثر قدرة على قراءة السطور في العيون ولا تقول. . وتكتفي باحساسها الخاص لنفسها وتسعد بذلك. .

فقالت: وكأنها لم تسمع كلمة «أحبك أنت»: أصل أنا بحب الموسيقى العربية. .

وعلى الفور قلت: يظهر أننا متفقان في كل شيء. . ولعل أول شيء هو حبنا المشترك للموسيقى العربية. .

فقالت: ما رأيك. . اعتذر لصاحبك عن الحفلة خالص. . وسأذهب معك إلى هناك.

فقلت: لكن هناك لا نستطيع أن نتحدث!!

فقالت: نسهر سوياً في بيتك بعد الموسيقى . .

وكانت مفاجأة شديدة . . ولم ينطق لساني بشيء!

فسألت: سكت ليه؟!

قلت: أبداً . . نسهر في بيتي؟! . . وقد استولى علي العجب والفرحة!

قالت: آه . . سأقول لوالدتي أنني سوف أنام عند واحدة صاحبتي في هذه الليلة!

قلت: وزوجك!

قالت: لما نتقابل نتكلم . . فأنا منذ أمس في بيت والدتي . . وأخي الكبير مسافر.

قلت: ولما والدتك تسأل عليك في التليفون عند صاحبتك . .

قالت: صاحبتي أخذت شقة جديدة ولم تنقل التليفون بعد.

قلت: ولكن أنا خايف مرة صاحبتك تغلط . . عند أية مناسبة للحديث وتقول لأمك بما يفيد بأنها لم تشاهدك في تلك الليلة . .

قالت بعصبية: أنت اللي خايف . . وألا أنا؟!

قلت في خجل: أنا خايف عليك أنت!

قالت: أنا أعرف اتصرف. .

قلت: يا حلاوة الدنيا. . يا حلاوتك. . أيوه كدة إمال!

وعمري ماهنسى ليلة الخميس. . على وزن عمري ماهنسى يوم الاثنين!

ثم قلت: أنا خايف استرسل في الحديث. . ثم أفاجأ بأن «السكة» قد أغلقت في وجهي!

قالت: انت عارف الظروف. . أظنك فاهم ليه أنا بعمل كده.

قلت: أنا لا ألومك. . ولكن بس أحب أعرف إن كان لديك وقت للحديث؟

قالت: لا فيه. . اتكلم. . أنا دلوقت في بيت ماما والتليفون في الأوضة. . وماما برة في زيارة.

ثم مضت بعد ذلك لحظات صمت. . قطعتها هي بقولها: اتكلم.

قلت:راح الكلام. .ولم تبق لِي سوى أشواق رؤيتك. . واصلت معها الحديث وكان مثل الذي«يداري»ضعفه على كلمات قالها. . لا هو نادم عليها. ولا كان يريد أن يفضح نفسه. . ولكن على كل حال الكلمة مثل الرصاصة عندما تخرج لا يمكن استعادتها. .

وقلت: أنا في الحقيقة لدي كلام كثير بالاضافة إلى الأشواق. . وعلى رأي الشاعر نزار من أين غاليتي ابتدي. . وكل ما فيك أمير. . أمير. . من أين يا جاعلة أحرفي مما بها شرانقاً للحرير!!

وسمعت في التليفون. . تنهيدة طويلة. . وبعدها جاءني صوتها ناعماً: أكمل. .

قلت: هذه بعض ابيات وردت في مقدمة ديوان الشاعر نزار. . وبس.

وسألتني فجأة: إيه رأيك في الحب. . أوهوَّ فيه حب؟!

فقلت: طبعاً فيه حب. . ما وجد الإنسان على الأرض. . وهو إن لم يوجد لاخترعناه مثلما يقول نزار أيضاً. ولكنه جزء من تكويننا مثل أعضاء الجسم في كل الكائنات الحية. . ولا رأي لنا فيه. . فهو مثل الدين لا رأي للإنسان فيه. والدين قد شرعه الله سبحانه وتعالى للإنسان من أجل سعادته.

وكذلك الإنسان وجد نفسه مع الحب ولا رأي له فيه لأنه خارج عن قوانين البشر. . فالإنسان لا يعرف ما هو سر هذه الانتفاضة وهذا الاشتعال الوجداني عند رؤ ية من يحب، ولا سر هذا الهم العظيم عندما يفقد الإنسان من أحب. . أو حتى يغيب عنه المحبوب؟

قالت: ربما أعرف ما تقوله. . ولكنه ليس بالضبط كما قلت لأنني لا أعرف أن أقول مثلك. .ولكن كنت مؤمنة بالحب. .

وتـزوجت عن حب وبعـد ذلـك ذهب الحب. . وبقي الغلب!. وفي حالة من الندم والكفر بمن أحببت وأنا على وشك الانفصال.

وقلت بما يشبه الاندهاش والفرحة الغامضة في نفس الوقت: انفصال إيه لا سمح الله؟

قالت: دي حكايـة طويلة. . بعـدين هتعرفهـا. . وسألت من جـديـد. . المهم هـل فيـه حب مثلمـا نسمـع بـه في القصص والروايات؟

قلت: وقـد ارتديت عبـاءة الاستاذيـة: من جهة فيـه حب. . فالحب موجود. . لأن الحب في الأصل هو حب الإنسان لذاته.

قالت مقاطعة: هذه أنـانية. . وأين التضحيـة في الحب مثلما نسمع؟

قلت وعباءة الأستاذية لم أزل أرتديها: ببساطة شديدة سأقـول لك. . أنك عندما أحببت. . وتـزوجت عن حب. . كان في يقينك أن ذلك سيحقق لك السعادة الدائمة. . وعندما تقولين أنـك على وشك الانفصال. . فهذا معناه غياب الحب ومعه السعـادة. . ومن أجـل استمرار سعـادتك، ووضـع حد لتعـاستك ومن أجـل انقـاذ نفسك التي تحبينها. . إذن فالحب من أجل سعادتنا والكراهية من أجـل سعـادتنـا بمعنى أننـا نتمنى ألا تجيء الكـراهيـة من أجـــل استمـرار السعـادة. وأنت عنـــدمـا تحبيني. . فــأنت تحبيني لأن المحبـوب تجدين فيـه سعادتـك وراحتك. . وكـذلك هـو بدليـل

عندما ما يحدث ما يضايقك منه يتحول الحب الى كراهية .أو غضب وذلك في حده الأدنى .

وسألتها الرأي فيما أقول: ولكنها صمتت وطلبت مني أن أكمل وكأنها لا تريد أن تعترف أنها اقتنعت أو على الأقل أن هذا الكلام منطقي .

واسترسلت قائلاً: ومع ذلك فما أقوله هو اجتهاد منطقي والحب أكبر من كل ما نقول. . لأنني أتحدث في الحب بعقلي . . والمفروض أن الحب يبدأ حيث ينتهي العقل لأن الحب من أعمال القلب وكذلك الانفعالات والعواطف، والعقل في العادة يفسد الحب. لأنه يحاول أن يفسر ظواهر الانفعالات اللامنطقية عند العشاق، والمسألة مثلما سبق أن قلت لا تفسير للعواطف التي تجتاح العاشق عند لقاء الحبيبة. وكذلك الحبيبة وانفعالاتها وقت اللقاء الحميم!

. . وقلت: إذا حاولنا معرفة أسرار ذلك نكون قد وضعنا الحب على مشرحة الجراح ليقطع أوصاله بحثاً عن شيء لن يجده ولذلك يبقى الحب جميلاً كما هو مثل الإنسان. . ولك ان تتصوري إنسان جميل في المشرحة؟!

وعدت أسألها الرأي من جديد وبداخلي ما يشبه الزهو فيما قلت.

ولكنها قالت: يعجبني فيك القدرة على الكلام.

فقاطعتها قائلاً: كنت أفضل أن تقولي: أنا اقتنعت أو أني

أملك القدرة على الاقناع. . لا على الكلام. . لأن كل إنسان في استطاعته أن يتحدث حتى الأطفال والعاديين من الناس. . ولكن يبقى السؤال. . ماذا يقول الطفل أو المتحدث؟!

قالت: مقتنعة يابيه!!

فقلت: أنت بتأخديني على قد عقلي. . ثم أنه لا بهوية ولا ألقاب في الحب!. . . لأن الحب عندما يقرب بين الناس ويلغي المسافات بينهم. . فإن أول الأشياء في الاختفاء هي الألقاب وتلك الحدود التي هي من صنعنا. . ووجدناها من موروثات المجتمع. . وعليك أن تتصوري. .

وإذا بها تقول: طيب يا فايزة إن شاء الله أشوفك يوم الخميس بالليل. . وأسهر معاك. . وتصبحي على خير.

وعرفت أن أمها قد وصلت. . لأنها بادرت باغلاق التليفون.

وكانت هذه أول ليلة أنام فيها مستريحاً. . اللهم من بعض قلق الانتظار والتمني لو التقيت بها هذه الليلة. . أو على الأكثر في صباح اليوم التالي. ولكن صبراً. . فلم يزل هناك أيام ثلاثة بلياليها الطويلة بالانتظار.

ولكن على أي حال. . أهي راحة والسلام. . ووجدتني أدندن. . . بكلمات أغنية أم كلثوم: إفرح يا قلبي لك نصيب. . نبلغ مناك ويا الحبيب. . إفرح يا قلبي!

الفَصْلُ الثَالِث

كنت أحدث نفسي.. ولا يزال صديقي أحمد يستمع.. وأقول:

آه يا مختار يا ابن عبد الله لو قدر لـك الفوز بهـذه الحسناء التي لا تعرف حتى الآن اسمها.. والتي بـرغم ما بيننـا من كلام لم تشـأ أن تبوح به. ولكنني سأعرفه.. حتى لو قـالت اسمها غـير اسمها. ولكن سأعرفه عندمـا تكون يـوماً في فـراشي.. وبعد مـا تنسى كل شيء وتبوح في نفس الوقت بكل شيء.. لأن النشوة تجعلنا في حالة من الخدر اللذيذ الذي يذهب معه الحذر.. وهذا الخدر اللذيـذ.. هو أقرب ما يكون بالحالة التي يزول فيها أثر التخدير في العمليـات الجراحية رويداً رويداً.. ويجـد المريض نفسـه يجيب عن كل سؤال ولكن يا مختار.. أسأل نفسي: ما هي أسباب لهفتك على السيدة.. وهي ليست الجميلة الـوحيـدة في حيـاتـك.. ولكن أعـود فـأقـول لنفسي.. هذه ليست جميلة فقط.. ولكنها عاصمة للجمال.. وإذا صارت لي سأكـون عمدة هـذه المدينـة.. وسوف أصبـح أنا ذلـك

الغريب في هذه المدينة وأصبح ملكاً على عاصمة العشق.. آه يا مختار!!

ما زلت أحدث نفسي وأقول: ثم إنه من الطبيعي أن أهاجر نحو الجمال.. ولو عرفت كل جميلات الأرض وبقيت واحدة.. لهاجر إليها الفؤاد.. وإذا لم تكن الهجرة حباً.. فهي في حدها الأدنى اكتشاف جديد ولذة جديدة.. ومتعة جديدة.. وذكريات جديدة.. ونبض جديد للقلب.. تجديد للنفس.. ومزيد من الثقة في النفس.. وفوق كل ذلك جلال التجربة الجديدة وانفعالاتها وروعتها.

آه يا مختار.. فالليلة موعدك.. وستأخذ ألوانها من ألف ليلة ومن أساطير جواريها الحسان.

ليلة سأختصر فيها العمر.. وتعانقها روحي بكل تاريخ الصبا في الصبابة!

ورحت أروي ما قالته الشاعرة فدوى طوقان في هذا الموضوع بقدر ما حفظته الذاكرة.. عن أمانيها في لقاء حبيبها عندما قالت:

كلما صوتك ناداني إلى
موعد يحضنه صدر الأمان
عانقت روحي أمسية
كم تساقى الحب فيها والحنان
عاشقان

نسيا الدنيا عليها والزمان

آه يا مختار. .والموعد اقترب. . واللقاء أوشك. . ويصبح الحلم حقيقة. . حتى لما زارتني يوماً في الحلم عندما رأيتها صحوت ولم أبلغ المراد. . يا خوفي يا مختار من مجرد اللقاء بغير صبابة الهوى وعواصفه النبيلة، وأشواقه الماجدة. . يا خوفي يا مختار من الزمن الضنين حتى بالأحلام بمن نريد ونشتهي!

الليلة يا مختار ستقطف من ثمار أجمل البساتين. وتتذوق أعظم فاكهة.

الليلة يا مختار لن أحتسي فيها شاياً أو قهوة أو حليباً أو كازوزة مثلما كنت تشرب. . ستشرب يا مختار من قلة الشربات والحليب والعسل والقهوة واللحمة في وقت واحد!!

وسيضيء في فراشي ألف قمر. . واستغني عن قمر السماء بالتطلع إلى بهاء أجمل قمر!

الله على عروس كل الأمسيات، وملكة كل الليالي التي حضرت في موعدها أمام مسرح سيد درويش للموسيقى. . أحسد نفسي قبل أن يحسدني الناس على هذا الجمال كله. . وهذا الدلال كله. .

أهلاً. . قلتها مختصرة وبقليل من الاضطراب الممزوج بالفخر. . وسرنا نحو الباب بخطوات ملكية. كما لو أن الناس قد

تحولوا جميعاً إلى حرس شرف للملكة والملك!! . . وملت نحو أذنها وقلت همساً: يا عيني على (المحن)! وكتمت ضحكتها!

وحياني من هم بالباب. . ولم يسألوني التذاكر لمعرفتهم بي. . وسبقني من يريد أن يجلسني في مقاعدي المخصصة والثابتة. . وأنا كالعادة أعرف طريقي، ولكنني أترك «البلاسير» يفعل ذلك من باب التقدير. .وحتى لا أحرمه مما تيسر من البقشيش لزوم المقام العالي في هذه الليلة. التي أريد أن تنطفىء الأنوار استعداداً لسماع الموشحات الأندلسية. . وكذلك استمع إلى صدى ذلك الجمال الذي اتخيل أنه يصدر أجمل النغمات الخفية. . والتي تحسها أجساد كل من عرف الحب. . وشرب من عسل الهوى المصفى!

في هذه اللحظة أخفي القليل من اضطرابي بالاستماع إلى همساتها التي تتحدث عن جمال الموسيقى العربية. وأخفي نظراتي عن الناس بقراءة برنامج الحفل. . ثم أميل ناحيتها معلقاً على بعض الفقرات المرتقبة واستشعر نظرات الناس. . وأهيم بنظراتي في لا شيء وقد لفتني ضجة أحلامي وأمنياتي. ثم أميل عليها وأسألها في خجل. . تصوري حتى الآن لم أعرف اسمك. . وحتى ولو مجرد اسم تتفقين عليه لأناديك به. .

فقالت: اختر ما تشاء من الأسماء التي تعجبك. . فقلت: سحر! ولماذا سحر؟ سألتني في خبث ناعم وبريق عينيها يلمع. .

وربما تريد أن تسأل إن كنت أعرف واحدة بهذا الاسم وأريد أن أجدد حبي فيها!

فقلت: لأنك السحر كله.. ولقد سحرتني.. ثم أنك كل الأسماء الجميلة.. فأنت الفائزة والزهراء.. وأنت فوز وعزة وبثينة اللاتي عرفهن شعراء الغزل العفيف في الشعر العربي مثل جميل وعباس بن الأحنف وكثير. وأنت بستان المغنية التي تحدث عنها ابن الرومي.. وكانت جميلة عصرها وأنت ليلى وسلوى ومنى وأماني.. وكل الأماني.

فقالت: كفاية.. كفاية.. خلاص لقد عرفت وحدك اسمي.. فأنا «أماني»..

وكنت أريد أن أقول: أماني كالأحلام زخرفها الكرى.. وقل على الأيام أن يصدق الحلم. واكتفيت أن أردد هذا البيت من الشعر بيني وبين نفسي.

وقطعت همسي ونجواي الهامس عندما تعالى التصفيق عند دخول المايسترو، وشاركنا الناس في التصفيق.

الله.. الله.. على جمال الموسيقى.. الله.. الله.. الله.. الله على جمالها.. وسبحان من أبدع.. وخلق وصور..

وأتمايل بفعل النشوة «والأماني» والنغم.

وتطلب المزيد عند نهاية موشحات وأدوار ملأ الكاسات

وسقـاني. ويا عيني خـدك وردي. وأنا أعمـل إيـه في دا الهـوى. . سحـر الجفـون. . خـد مني قلبي. ويـا ليلة الأنس دومي لنـا فـإن الحبيب علينا رضي!

وكنت أشعر كأن الفـرقة كـانت تؤدي في هذه الليلة أجمـل من كل ليلة. وكأنها تغني لنا وحدنا.

وبرغم ذلك كنت استعجلها. . وأتعجل النهاية. . حتى أصـل إلى بيتي. . وتكون بداية تحقيق «الأماني»!

وكنت أقـارن بين حبيبتي وبـين الموشحـات الأندلسيـة. وكنت أراها عربية. ومن أصل أوروبي. أو أوروبيـة من أصل عـربي فهي مزيج رائع لنوعين من الجمال الفريد. . كما لو كانت جمالاً مشتـركاً يباهى به الأوروبيون والعرب والمصريون في آن واحـد ويشرفهم أن ينتسب إليهم هذا الجمال كل على حدة. أو يعتبرونه الانتاج الفاخر والممتاز لتلاقي الحضارات وتعاونها عبر العصور.

وهـا نحن في السيارة لمسـافة قصيـرة بعد انتهـاء الحفل وتحفنـا أشجار الليل ومصابيح الشوق، وعرائس السماء وملائكة الحب.

وها نحن على أبواب البيت ونغادر السيارة. . ولأول مرة أتجـرأ وأقبل يدها من ظاهرها، ومن باطنها في السيارة. . والبيت على بعد خطوة أجده مضيئاً بكل أنواره. ويبدو أنني من بهجة اللقاء المرتقب خرجت منه. وقد نسيت أن أطفىء أنواره. . وهذا على كل حال فأل طيب. . أن تستقبلها أنوار الشوق والترحيب في بيتي!

وأدرت مفتاح الباب، وبكل الفرحة قلت: تفضلي: واتسعت فتحة الباب ويدي عليه والتفت إليها لتدخل وعيني عليها. ولكنها كانت تتعثر في الدخول!

يا ليلة سودة!

وعندما اتسعت فتحة الباب شاهدت هي قبل أن أشاهد أنا الهول الأكبر.

شقيقتي الصغرى قادمة من القرية وتجلس في أسفل الثلاجة في صالة البيت وتخرج «بيض» من صفيحة دقيق جاءت به من القرية وتخاف أن «ينكسر» عبر رحلتها من القرية إلى المدينة، وتضعه في الثلاجة بكل هدوء!!

فصحت فيها بتلقائية وبكل كياني: إيه اللي جابك يا بنت؟!

ثم تمالكت قليلاً وصحت من جديد: فيه بنت تسافر في الليل إلى المدينة.

فقالت في هدوء:

أمي أمي قالت روحي لأخيك بالحمام ده أحسن بيحبه..

فصرخت.. ولا حمام ولا زفت!

فقالت: أعمل إيه العربية اتعطلت عند بنها ٤ ساعات وأنا المفروض أكون هنا الساعة أربعة أو خمسة. ولكن على ما جيت.

وأمي كـانت بتقول أخـوك «مجاش من زمـان وهـو بيحب الحمـام. وأخاف إن حضر البلد يكون الحمام كبر على الدبح!

فقلت: ياك دبح رقبتـك.. تخليني أقلق عليك في الليـل. وأنا خايف عليك. قلت ذلـك حتى أداري غضبي ومعي كل «الأمـاني» التي انهارت وابتلعتها الأرض.. وأنا أيضاً..

ثم قالت شقيقتي بكل الـطيبة وهي تكـاد تبكي.. فلم أسمح لهـا بشيء: وقلت بعـد أن التفت إلى كـل «الأمـاني» والأمنيـات: تفضـلي يـا هـانم التليفـون جـوه. قـومي يـا بنت «وري» الهـانم التليفـون.. وهي جارتنـا فدخلت «كـل الأماني» عـلى استحياء.. وهي تردد: أنا آسفة لازعاجكم. أصل أنا عاوزة أتكلم مكالمة هامة أطمئن فيها على صحة أمي.

فقلت: أنا اللي آسف على الصراخ وقد نسيت حضرتـك واقفة على الباب، لأنني أخاف على البنات وسفر الليل.

وقـادتها أختي الـطيبـة إلى حجـرة نـومي حيث التليفـون وهي ترحب بها ببساطة أهل الريف.

ثم استطردت تقول: وأمي قالت خدي معـاك «دكر البط» ده كمان والفطير والقشـطة اللي أخـوك بيحبها. ومـا كنتش أعرف أنني هتأخر في المـواصلات. حتى عنـد المحطة.. انتـظرت طويـلاً حتى وجـدت «تـاكسي» رضي يجيبني شـارع الهـرم. ولا تـزال أختي

تروي . . وأنا كل ما بداخلي يسقط إذا لم يكن سقط دفعة واحدة .

وإذا «بكل الأماني» تخرج من غرفة النوم . . وهي تردد كلمات الشكر على تعبنا وتقول: وجدت نمرة التليفون في بيت ماما مشغولة .

فدعوتها للانتظار قليلاً قائلاً : ربما كانت مشغولة . . والبيت بيتك يا ست هانم ـ وشاركتني شقيقتي في الترحيب بها ودعوتها على العشاء من طعام أهل الريف. وافتعلت الابتسامة، وكل الأحزان تغطي وجهي . . فاعتذرت قائلة : يمكن التليفون لسه «عطلان» متشكرين مرة ثانية وتصبحوا على خير.

الحيرة مع كل الحزن يسكنان جسدي وبيتي . . وكنت أسأل هل يا ترى: فهمت شقيقتي؟ . . أم خالت عليها الحيلة؟! فشقيقتي خريجة الجامعة. وكانت تقيم معي في فترة دراستها وربما تعرف الكثير عن أحوال أهل المدينة وإن كانت قد ظلت تحتفظ بنقاء أهل الريف وسماحتهم وأخلاقهم . . وهي بالذات على خلق كريم لم أر مثله في معظم ما رأيت ومن عرفت من البنات، أو يا ترى تسرب إليها الشك وتحتفظ به لنفسها ولا تبوح مثلما احتفظت بمفتاح الشقة معها منذ أيام دراستها ولم أشأ أن استرده منها. ولم يخطر ببالي ما سوف يحدث! وأصبحت فريسة للهزيمة والانهيار الداخلي .

وأسرعت إلى أقراص المنوم لابتلع قرصين «فاليوم» عشرة

مليجرام مرة واحدة لعلني أسقط في النوم. . وإلا بعـد قليل سـوف أمـوت صريعـاً للذبحـة أو انفجـار في المـخ. . وسـألتني شقيقتي في لـطف إن كـانت تحضر لي العشـاء أو تجهـز لي شيئـاً قبـل النـــوم. فاعتذرت وذهبت إلى فراشي وكل الهموم تحاصـرني. ولم أعرف متى استغرقت في النوم.

ولم أعرف متى جاء الصبـاح. . و. . أو أصبحنا في أيـة ساعـة وقد جاء النهـار الذي مـلأ البيت. ولم أشأ أن أنـظر إلى الساعـة. . وإيه يفيد الـزمن. . أو النوم. . أو أي شيء. . وقد راح كل ما بنيت من أحلام السعادة. . والجسـد عليل. . والعقـل كليل. وأصبحت لا أقوى على شيء. وإن كنت قد افتعلت الرغبة في الطعـام حتى لا يبدو مظهري أمام شقيقتي أن في الأمر شيئاً. وكـان الطعـام لا ينزل لي من زور. واكتفيت بأقل القليل كما لو كنت طفلاً رضيعاً، وكنت أنظر إلى سماحة شقيقتي ولا ألومها. . ولا أستطيع أن ألوم نفسي.

وأردد في سري هذا القول: أنا من ضحايا الحب!

فحبي لأهلي جعلني أضحي بحريتي الشخصية. وتبقى شقيقتي معي في المسكن أثناء دراستها، لأنني لا أستـطيع أن أذهب بهـا إلى المدينة الجامعية كما فعل أحد أصدقائي!

ولا يليق بي ولن أستـطيع أن أسـامـح نفسي لـو فعلت ذلـك. حتى لمـا وجـدت بنت «الحــلال» التي أحببتهـا وأحبتني. . أجلت زواجي منها لحين إتمـام دراستها. حتى لا تجيء زوجتي وتكـون من

أسباب تعاسة شقيقتي أو تكون شقيقتي من أسباب تعاسة حبيبتي وزوجتي.

ولما طالت فترة عقد القران بلا زواج.. تراكمت الخلافات الصغيرة بيننا. وكان السراح الجميل بيني وبينها، ولم يزل لها في الفؤاد مكانة عالية بالذكريات الجميلة والخلق النبيل، والأصل الكريم! أنا من ضحايا الحب.. أنا من ضحايا الحب!! أنا من ضحايا الحب.. وطيبة أهل الريف.. وطباعهم!.. فهذه شقيقتي مع الأولى.. وهذه شقيقتي مع الثانية! وهي بكرم ضيافتها لعروستي بعد عقد القران لما كانت تزور البيت كانت تظل بالحفاوة لعروستي جالسة. وكنت أتمنى وكذلك عروستي الحبيبة لو تفارقنا قليلاً، عندما كانت تزورنا أشواقنا لقليل من نجوى أو كلام حميم.

وتتوتر الأعصاب منا. وتغضب لأتفه الأسباب نظراً لأعصابنا التي أحرقها الشوق المستحيل وكرم الأهل وحبهم!

أنا من ضحايا الحب.. والقرية.. والمدينة. والجمال.. والكرم.. والشهامة.. وأخلاق الريف!!

حتى هذه اللحظة لا أعرف كم مضت من ساعات النهار. ولكنني استمعت إلى الآذان.. ولا أعرف إن كان الوقت ظهراً أم عصراً.. كل ما أشعر به الآن هو الاستسلام للأقدار والرغبة في النوم. وشعرت بأن كياني كله مهدد!

وشعرت بالخوف على نفسي. . وعلى قلبي أثر الجرعة الكبيرة للمنوم. . واستدعيت أحد الأطباء من الأصدقاء. وأخبرته بما تعاطيته. فأصابه الفزع. . والذي انتقل فزعه إلى كياني أيضاً.

وأغلقت علينا الباب ورحت أفضي له بما حدث. . وهدأت عندما أفضيت أو «فضفضت» إليه. وعندما قال لي: حسناً فعلت. . ولكن أنصحك بالهدوء.

وعدم تكرار تعاطي مثل هذه الكمية مرة أخرى.

وقد خرج الطبيب على وعد بالعودة مرة أخرى بعد قليل. وقد أعطاني جرعة من الدواء مرة واحدة. . ولا أدري ما هي ولا أعرف لماذا؟!

وأصبحت أشعر وكأن الدنيا شاحبة. . وهدأ كل شيء في داخلي. . ورحت في النوم من جديد.

ولا أعرف كيف سارت بي الأيام بعد ذلك. كل ما أعرف أنني حاولت النسيان قدر ما استطعت. وعدت إلى عملي. ونجحت في التخلص من نبرة الأسى والشجن في صوتي عند تقديم نشرة الأخبار. واستغرقني العمل أو حاولت الاستغراق فيه أو إغراق همومي فيه.

وكنت أشبه بمن أصابته محنة. . ويحاول أن يتغلب عليها. وحاولت أن أقلل من التفكير فيها. . حتى إذا ما هاجمتني ذكراها

رحت أستمع إلى الراديو الذي نـادراً ما أسمعـه. . وأدير مؤشـرات الـراديو عـلى كل المحـطات. وأتحـدث طـويـلاً مـع أصـدقـائي في التليفون، وهذه ليست عاداتي. وأسهر طويلاً مع الأصدقاء.

وكنت دائمـاً أقول: من فضل الله على الانسـان، أن كل شيء يولد صغيـراً ثم يكبر. . إلا الأحزان تـولد كبيـرة ثم تصغر. وكنت في حالة من الرجاء أن تصغر أحزاني. وكنت كثيـراً ما أذكرها ولكن كذكرى ممـزوجة بـالغرابـة. ولا زلت أقوم بعمـلي وأجاهـد ألا يبدو شيئاً على وجهي. كما كنت أطيل فترة البقاء في العمل، وقبل ظهـر اليـوم وجدت السـاعي يدخـل، وهو يقـول تفضلي دون أن يخبـرني بشيء. . أو يخبرني أحد بزائرة تريد مقابلتي، وعلى العموم هذا تقليـد السعاة في الاذاعة. . يمكن أن يدخلوا كل من يريد الدخول إلى أي مكتب. وكانت المفاجـأة أن تكون «أمـاني» هي الزائـرة. وقد مضى على ليلتي المشئومة معها فترة من الوقت تقتـرب من الشهر. وبكـل تـرحاب وانشـراح في الصدر بـدد أحزان القلب وجـدتني مصافحـاً وصائحاً. .

أهلا اااا ن. . من أم ديل.

لتعبير عن الحفاوة والفرحة.

وقبل أن تتحدث هي قلت: أي ريح طيبة حملتك إلى هنا.

قـالت دون ذكر لأي شيء ممـا جرى في ليلة النكبـة: تليفونـك دائماً إما مشغول. . أو لا يرد أحد فيه. وكنت في مشـوار قريب من

هنا . . وجاءتني فكرة السؤال عليك . . وأزورك لو كنت موجوداً . . والحمد لله . قالوا لي : انك موجود .

قلت : الحمد لله . . وشكراً لزيارتك .

وقلت لها وعيناي تلمعان بالعجب وعلى لساني الدهشة : مرحباً بك . . فأنا بعد قليل على موعد مع الاستديو لتسجيل حلقة خاصة مع ضيوف من رجال المال والسياسة والاقتصاد عن الحوار العربي الأوروبي . وبالصدفة قد حضرت هذا الحوار في عواصم أوروبا .

ثم قلت : يبدو أن الأقدار لا تريد لنا لقاء ، أو علاقتنا دائماً تأتي مع الزمان الخطأ والمكان الخطأ . أو يبدأ فراقنا في لحظة اللقاء !

وقلت : لو أنني رويت قصتي معك يوماً . . لقال عنها النقاد أن كثرة الصدفة في هذه العلاقة تفسد هذه الرواية كعمل فني . . وانها خالية من الصراع والذي هو جوهر الدراما . .

وقالوا أيضاً لو أنني انتقلت من الدنيا بالموت من أثر جريمة المنوم التي أخذتها في ليلة «النكبة» وزيارة شقيقتي الغير المتوقعة . . لقال النقاد أيضاً : أن المؤلف فاشل لأنه قتل أحد أبطاله لانهاء الرواية . ولم يستطع حل عقدتها عندما بلغت الأحداث ذروتها . ولم ينجح في إيجاد الانفراج الطبيعي للأزمة .

وقلت موجهاً الحديث إلى نفسي أي صراع وأية صدفة وأية

نكبة أكثر مما أنا فيه وأي صراع أكبر من الصراع مع النفس والظروف التي تحاصر حبنا؟ . . وماذا أفعل مع حب دائماً ما يجيء في الزمان والمكان الخطأ. ورفعت رأسي إليها. . ووجدتها تستمع بإصغاء تام. ثم نهضت قائلة: سأتصل بك في المساء. كما سألتني عن موعد إذاعة هذا البرنامج؟ واستمعت إلى مكالمتها التي جاءتني هادئة كالمساء، وأنا في حالة من الاسترخاء التام. . وكنت أستمع الى حديثها. . وهي تروي أن والدتها تأكدت بالصدفة أنها باتت ليلتها في منزل صديقتها فايزة، عندما شاهدت إحدى الصديقات صدفة، وراحت هذه الصديقة تروي لأمها قصة ذهابها الى بيت صديقتها فايزة ووجدت «أماني» هناك.

وسألتني: كيف أمضيت ليلتي. . وحكيت. . وسألتها وأفاضت في القول لي. . بعد ما رويت لصديقتها فايزة وقائع أخرى عللت فيها رغبتها في المجيء إليها.

ثم سألتني بشكل مفاجىء:

لم أفرح وأنا أستمع إلى برنامجك الخاص عن الحوار العربي الأوروبي. وحزنت مرتين. . الأولى عندما عرفت أن أوروبا غير جادة مع العرب في إعطائهم العلم الحديث لبناء تقدمهم، برغم أن أوروبا تنعم برخائها لوجود الأرصدة العربية الضخمة في بنوكها. والثاني، أن حضارتها في العصر الحديث قائمة على مصادر الطاقة العربية، وهم مثلما كانوا في العصر الاستعماري لم يتغيروا. وظلوا

كما هم . . يعتمدون في رخائهم على استنزاف الشعوب الفقيرة. وأي منطق هذا الذي يسوقونه في أن العقل العربي لا يستطيع استيعاب العلم الحديث، وهذا ما يجعلهم يرفضون. وأي منطق ذلك الذي يجعلهم يقولون أن مصانع البتروكيماويات المراد إقامتها بجوار حقول البترول العربية هي سلع استراتيجية لا يسمحون ببيعها للعرب؟!

وشعرت بسعادة لم يسبق لها مثيل في أن محبوبتي لم تكن ذلك الشكل الجميل والجسد المرمري الرائع فقط . ولكن لها بعد ثقافي عميق. وقلت لها ذلك . .

فقالت: أنت نسيت أنني خريجة تجارة ودرست السياسة والا إيه؟

وشعرت هي أيضاً بالسعادة لأن كلماتها كانت لها صداها الجميل في نفسي.

وسألتها وما هو الشيء الثاني الذي أغضبك؟

فقالت على استحياء: إنني كنت في انتظار أن أسمع صوتك. . ولكنك تركت الميكرفون لضيوفك يتحدثون. . وعلى فكرة دي صفات الإذاعي الناجح . . إنما أهو رغبة أو سمها أنانية في رغبتي للاستماع إليك عبر الأثير. ربما كنت أحدث نفسي. . ربما كنت أريد أن أقول لصديقات ولا أستطيع أن ذلك الصوت الذي يملأ الدنيا. .

وصمتت. .

وشعرت بكل سعادة الدنيا. لأنه يستمع للمرة الأولى أول اعتراف بالحب. . وإن كانت كل تصرفات أماني تشي بالحب. . ولكنه كان يود لو استمع منها إلى مثل هذه الكلمات. . وطالبت أن تكمل حديثها برغم تقديري لخجلها. . وسألتها مرة أخرى بماذا كنت تريدين أن تقولي لأصدقائك؟.

وترددت قليلاً. . وقالت بصوت خفيض يلفه الخجل. . كنت أريد أن أقول: إنني أعرفه معرفة شخصية!

فقال: بس كده. .

فقالت بصوت في نعومة ودلالة: بس كده. . أمال عاوز أقولهم إيه؟

فكرت في حاجة ثانية:

قالت عارفة إنك عاوز تسمع إيه؟. . لكن الباقي أفهمه أنت وحدك.

وفجأة سألتني. . ولم أزل في حالة النشوة لذلك الاعتراف الذي كنت انتظره. . برغم أنني ألمحه في عيونها. . إنما أن أستمع إليه فهذه هي السعادة كلها. وسرحت في نشوتي الذاتية وفرحتي الداخلية. .

وحاولت أن أستعيد سؤالها.

فقالت: هل تجيء إلى بيتي؟

فقلت باندهاش لم أشعر مثله: أنا؟!

قالت: أمال أنا.. أيوه أنت؟

قلت: أي بيت؟!

قالت: بيت ماما!

قلت: وماذا أقول لماما.. وماذا تقولين عني لماما؟!

قالت: وانت مالك!.

قلت: وأنا مالي ازاي.. وأنا لا أعرف ماما ولا بابا.. ولا اخواتك.. ولا حاجة.. ثم إنني جبان جداً.

قالت ضاحكة: مفيش لا بابا ولا أخوات.. بابا ومات.. وإخواتي واحد مهاجر. وأختي متزوجة في الخارج من أحد رجال السلك الديبلوماسي. وماما مسافرة بكرة بورسعيد عند خالتي وستعود بعد يومين.. إيه رأيك؟

قلت: رأيي يا ست هانم.. دا من رابع المستحيلات.. وما دام الحكاية كده.. تعالي أنت إلى بيتي.

قالت: حرام وتوبة.. كفاية!

قلت: حكاية إنني أجيء إليك مستحيلة واطرديها من رأسك تماماً!

قالت: لا تخف.. أنا عاملة..

ثم سمعت كلمة باي باي يا فايزة تصبحي على خير. وأنهت المكالمة.

وعرفت أن أمها شرفت ـ وخافت لو استمعت إلى بقية الكلام.

وقلت في سري: قال بيت أمها قال!

طيب إذا كانت هي مش قادرة تكمل حديثاً تليفونياً خوفاً من أمها.. ماذا سيكون حالها لو جاء رجل غريب إلى بيتها؟!.

نام.. يا ولد نام!

ثم رحت أفكر كثيراً في الاقتراح.. وفي الكلمة التي لم تكملها (أنا عاملة..) وأخذت متردداً بيني وبين نفسي هل أذهب.. وكل ما فيها يغري بالذهاب إليها.. يكفي متعة النظر إليها. ولكن ما حيلتي مع الخوف.

وأقول: هل تكون هذه الجميلة أشجع منك؟!

ولماذا لا أذهب. وبانت في خيالي مع صور وخيالات لما سوف يتم لو ذهبت من كل الوان السعادة التي سوف تأتيني من كل باب. ووجدتني أشعر بالندم لأنني رفضت.

ولما جاءني صوتها في الصباح وجدتني أقول لها:

أنا موافق على المجيء إليك.. قلت ذلك تحت تأثير خيالي عنها

في الليـل، وصور الجمـال المختلفة التي رسمتهـا لها من آمـالي، مع وضع سيناريو كامل لهذا اللقاء السعيد المشـوب بالحـذر والخوف. . ولكنني أفضل من ذلك الحرمان منهـا الذي أخشى أن ينمـو في قلبي مثل جذوع الشجر القديم.

وفرحت هي بالموافقة.

وقبيـل المسـاء أعـددت نفسي للقـاء. وقبـل العشـاء وكنت في طـريقي إليهـا. . والخـوف يملؤني، وأشعـر وكـأن حصى الأرض في الـطريق تعرف إلى أين أذهب ومـاذا أنـوي أن أفعـل بمن أقـابـل. وكنت أتخيـل عيـون النـاس وأتحـاشـاهـا. خـوفـاً من أن تفضحني مشاعري ونواياي في ذلك اللقاء.

هأنذا في هذه اللحظة تخطو قدماي الخطوة الأولى داخـل بوابـة العمارة الفخمة ومـدخلها الـواسع الـذي يدل عـلى أن سكانها من أكابر القوم.

ويستقبلني البواب بالتحية.

وأرد برباطة جأش مفتعل وكلمات مقتضبة: الدور الخامس.

وفتح لي باب المصعـد. . وصعد معي. وعنـد الدور الخـامس نزلت. ووضعت يـدي عـلى جـرس إحـدى الشقق، ولكن دون أن أضـغط عــلى جــرس الشـقــة ودون أن يـلحظ الـبــواب الـــذي هبط بالمصعد إلى أسفل. ثم أسرعت أنا إلى الدور السادس صاعداً

حيث تسكن. ووجدت باب الشقة التي حددت رقمها «مواربا» قليلاً. وبجوار شقة عليها اسم أحد الوزراء السابقين. وفتحت الباب ودخلت بسرعة. وطبعت على خديها قبلة خائفة. . ثم سقطت جالساً على أول مقعد في الصالة. وقد التقطت أنفي رائحة شواء ومأكولات خارجة من المطبخ.

ومدت يدها تسحبني إلى الداخل وهي ترتدي «روب» وقد «فكت» حزامه. فبدت من داخله أروع من الخيال. . هذا الجسد السمهري الجميل لا يلتصق به سوى «سوتيان» ومايوه!!

وشعرت أن حلقي قد جف. وأن صوتي قد غاب. وأن آلاماً في الظهر قد بدأت تشتد. وكلها حالات لم يسبق لي أن عانيت منها.

واندهشت لترددي وسوء حالتي. وصدرت ضحكة وهي تقول: أنت خواف لهذه الدرجة؟. .

ولم أنطق بشيء.

وسمعت رنين جرس الباب. وشعرت أن روحي تصعد إلى بارئها وليرحمني الله. ولها الفضيحة!!.

وفي هدوء سحبتني إلى غرفة وأنا مثل الجثة التي يحركها الرعب ولم تفلح في تحريكي. ووجدتني أتحرك بسرعة إلى أقرب مقعد من الباب وضعت ساقاً على ساق. . في انتظار لحظة طلوع روحي

بعدما أعرف من الذي بالباب، ووجدتها تتحدث مع البواب بعد أن فتحت الباب فتحة صغيرة جداً، وتحاول إنهاء المحادثة.

وإذا بالبواب يقول يا بيه أنت غلطت في الدور.. ونزلت في الخامس بدل السادس. ولم أرد عليه ووجدتني انتفض وأقول لها: إطمئني.. أخوك في الخارج بخير وهذه رسالة وأخرجت ورقة من جيبي ومددت يدي بها، وكان البواب قد نزل وأغلقت الباب.. ووقفت تضحك من شكلي الذي «فككه الخوف» وهيهات أن يعود إلى وضعه القديم.. ووجدتني أفتح الباب وأنزل مهرولاً على الأقدام هابطاً السلالم، ودونما كلمة وداع. وهي في حالة من الذهول!

وشعرت بفرحة عبيطة عندما شاهدني البواب نازلاً كدليل براءتي وودعني واقفاً.. وقد غمرتني سعادة كبرى أن قال لي: ليه ماركبتش الأسانسير يا بيه؟! فلم أرد عليه، وأسرعت إلى عرض الطريق. والسعادة تلفني.. وقد عادت إلي الحياة. بعد ما شعرت لحظة انني فارقت الحياة. وأخذت أردد كلمات التسبيح والشكر لله! ولم يعد إلى نفسي صفاؤها وهدوؤها إلا بعدما ألقيت بنفسي على فراشي. وبعد ذلك الهدوء رحت أسأل نفسي: لماذا كل هذا الخوف في الحب؟.. وقد كنت شجاعاً في صباك المبكر، وقتها كنت في القرية. وتأتي بمجنون الأفعال في الحب بلا خوف.. وهل الشجاعة تولد مع الخوف.. أم كنت في صباك متهوراً.. وأصبحت في الحب عاقلاً بتقدم سنك؟! وأقول: الحب طفولة يا ولد وتفسده الحكمة!

وتذكرت حادثة حب متهورة وقعت لي في بداية شبابي في القرية. . عندما صادفت المحبوبة داخل بيتي مع أخريات جئن جميعاً للفرجة على عدد من عربات الكارو التي تحمل جهاز عروس. . وحضرن لوجود بيتنا على الطريق العمومي. وانتهزت فرصة انشغال الجميع بالنظر إلى طابور عربات الكارو.

وكنت أنا وحبيبتي خلف الصفوف في حالة من النجوى والحب. . وقد تخلت عني كل أسباب الخوف. . لدرجة أنني تصورت أن الخوف كلمة لا أعرفها أو لا أعرف معناها. . مع العلم لو تلفتت واحدة أي واحدة خلف ظهرها لأي سبب من الأسباب لوجدتنا. . وطبعاً تصبح فضيحة (بجلاجل) في هذا المجتمع المحدود. وتصبح قصتنا على كل لسان. فما بالك أنها كانت تحدث وسط الملأ الأعلى؟! وأسأل من جديد: إذا كانت القرية محاصرة بالأهل والضيوف وكل المعارف. . ولم يكن بها مشكلة حب ولا خوف وهي أدعى للخوف. . فهل تخاف في المدينة الكبيرة التي لا يعرف الناس فيها أحداً. وتجد سرادق الفرح وسرادق العزاء في الموت متجاورين وتسمع ميكروفونات تذيع عدوية وفاطمة عيد في ليلة فرح مع ميكرفون للقرآن الكريم من بيت واحد؟!

هل شجاعتك في الصبا هي التي قادتك إلى الخوف في شبابك أم أن الخوف هو الذي يقود إلى الشجاعة عند الخطر وكانت أسئلتي

بـلا جواب. وقـطع تفكيري تليفـون منها ويجيئني صـوتها مستنكـراً هازئاً: حمد لله على السلامة. . وبكل خجل قلت: الله يسلمك!

قالت: ماذا قلت؟

قلت: لا أدري.

قالت: إصـغ

قلت: من غير كلام ولا سلام. . يا ست هانم إذا كنت عاوزة تشـوفيني. . فسيكـون اللقـاء هنـا في بيتي. . وهــذا آخـر كــلام. والسلام. ولأول مرة أغلق أنا السماعـة في وجهها، فعـادت تطلبني من جديد معاتبة أن أغلق التليفون في وجهها!!

فقلت: مرة من نفسي. . وأنا أتلقى كل ذلك في كل مرة.

قالت: بس أنت عارف أنا باعمل كده ليه.

قلت: وأنا مش عارف بعمل كده ليه. .

قال: متى هشوفك. .

قلت: في بيتي

قالت: آخر كلام؟

قلت: من غير فصال!

قالت: وكأنها ألقت قنبلة لما سمعتها تقول: أنا جاية لـك بكرة الساعة أربعة!

فقلت: في ضعف مرحبا!

قالت: مش بتقولها من قلبك.

قلت: لم يعد فيَّ قلب.

قالت: للدرجة دي؟

فقلت: وقد استجمعت بعض شجاعتي: أصل قلبي من الفرحة سبقني إلى خارج جسمي استعداداً لاستقبالك والحفاوة بك في الغد إن شاء الله.

وليلتها نمت بلا خوف وتركت نفسي لمستقبل الغد.. بعد أن استنفذ جسدي كل مشاعر الحب والخوف والاندهاش والصدفة والمفاجأة!

ونمت وكأن الأمر أصبح لا يعنيني. وبات في يقيني ربما كانت جميلة الجميلات محجبة ضد اللقاء ومحصنة ضد اقتراب الرجال. وامرأة ممنوعة من الحب.

خلاص.. لم يعد لدي شيء أفعله أو أتوقعه. وأخذت أتلو بعض آيات من القرآن الكريم ودخلت في النوم بعد ما اطمأن قلبي بذكر الله.

الفصل الرابع

ذهبت إلى عملي كالمعتاد.. وانشغلت به وعدت مبكراً وسألتني الشغالة إن كانت تجهز لي طعام الغداء. واعتذرت. وطلبت منها الانصراف.. لأنني أريد النوم.

وكان في نيتي أن نتناول الغداء سوياً عندما تحضر «أماني» وتقوم هي بإعادة تسخينه وإعداده.

وقالت الشغالة تذكرني بأنني في الصباح طلبت منها إعداد أصناف متعددة من الطعام، وشراء أنواع من الفاكهة. كما شاهدت بعض لفائف عرفت هي من شكلها أنها لفائف حلويات.. الأمر الذي يدل على أنني سأستقبل ضيوفاً على الغداء.

ولكنني أعدت عليها القول بأنني مرهق وسأنام. وطلبت منها الرحيل.

وحان موعد وصولها. ولم تصل. ولما بلغت الساعة الرابعة والنصف ساورتني الشكوك والهواجس.. وهي لم تتعود أن تتأخر عن موعدها.

وفي الرابعة والنصف استمعت إلى رنين الجرس. فقفزت مسرعاً نحو الباب.. وبكل ترحاب وفرحة اللقاء.. الذي بدد أحزان كل أيامي عانقتها طويلاً.. طويلاً.. ورحلت في شفتيها إلى رحلة عبر العوالم السحرية والمجهولة. وحملتني أشواقي إلى السماوات العالية.. وكنا لم نزل واقفين خلف الباب.. ولم أطلب منها أن تجلس أو تستريح أو أي شيء.. كنت كطفل عاد إلى صدر أمه.. بعد أن خطفه مجهولون!!

وكان لقائي مزيجاً من الاضطراب والفرح والذكريات الأليمة.

وأول كلمة أقولها بعد هذا العناق.. وبعض الدمع الثابت في العيون.. وبعض حشرجة في الصوت.. قالت: اليوم عيد. ولقد ولدت من جديد يوم التقينا برغم اليأس في لقاء جديد، اليوم عيد!!.. اليوم عيد!!

وكان الراديو لم يزل مفتوحاً على محطة أم كلثوم.. كنت أتسلى قطعاً للوقت والانتظار قبل القدوم.. ولم أتذكر أن أغلقه..

وجاءت موسيقى مقطع: هات إيديك ترتاح للمستهم إيديا.. هات عينيك تسرح في دنيتهم عينيا!.. والعزف المنفرد على كمان العازف الشهير أحمد الحفناوي يجعلني أتمايل مع إيقاع هذه المعزوفة.. مع حلاوة اللقاء وروعته وما أحلى حبيبتي وما أجملها وهي ترقص على هذه الموسيقى، وتتخلى عن ثيابها.. مع الاستمرار في الرقص مع الموسيقى..

وعندما تشدو أم كلثوم بالكلمات: هات عينيك تسرح في دنيتهم عينيا. . أقول بصوت عال: يا عيني عينيا آهه! هذه يدي. . وهذه عيني. . وأشياء أخرى!

وعندما تقول أم كلثوم: هات إيديك ترتاح للمستهم إيديا. . وإيديا آهه. . وأرقص. . وعيناي على كل شيء فيها. . والفرحة تزلزلني ولم أسألها لماذا تأخرت. . فقط قلت لها: انشغلت عليك!

فردت باختصار: زحام الطريق.

فقلت هل تعلمين أنني في انتظارك على الغداء. . وكل شيء جاهز في المطبخ لتجهيزك أنت. . وأنت التي ستأكلين أما أنا فغذائي من فاكهتك ومن بساتينك!

ودخلت المطبخ كما هي. . وكانت ترقص وأنا معها. . فهمست في أذنها قائلاً: إنك حقاً سلسة! فصدرت منها ضحكة عالية. . اهتزت لها جدران البيت، وبدأ العرق ينزف من جبيني. . والخوف يسري في بدني على صوت الجارة أمام بيتي وقد وقفت ببابي تسب وتلعن وتصيح في الناس بأن هذه الشقة يسكنها المجون والفسق! ولاحظت أماني قلقي واضطرابي. . ونزيف العرق ينزل بالخوف على وجهي وفي عيوني.

فقالت: دعني لهذه السيدة وأنا لي تصرف معها. . ثم إنك في بيتك لا شريك لك!. . وأنت حر!!

ولكنني قلت في هـدوء: هذه الأمـور تعالـج بالحكمـة ودعـك منها.. ولنا تصرف بعد الغداء.

وأعـدت هي السـفرة.. وقلبـي قد وصـل إلى أسفـل قدمي.. ولا أدري بماذا أتصرف.. وقد سمعت بعض «همهمة» للسكان.

ولاحظت أماني أنني لا آكل.. أو أبلع الطعام ببطء شديد.. فإذا بها تقول: خائف حتى في بيتك.. ثم تقول: دعني لها.. لأنك لـو خرجت إليهـا ربما تـرمي بلاويهـا عليـك.. ولا يهـزم المـرأة إلا المرأة. وتوقفت هي عن الـطعـام وقـد ارتـدت مـلابسهـا. ولكنني تـوسلت إليها أن تتصـرف في هدوء ولي تصـرف معهـا.. وسـوف تسمعين به.

وفعلاً خرجنا وكأننا لا نسمع شيئاً.. .واصطنعت حديثاً أو حواراً حول موضـوع تدل كلمـاته عـلى أنها إحدى قـريباتي.. أو صغـرى خالاتي.. مع كلمة إنذار قلتها في الهواء وأنا في الطريق إلى الباب سأجعلها ترحل من هذا البيت!

وركبت معهـا سيارتهـا. وطلبت منها أن نجلس قليـلاً في أحد الكازينوهات المطلة على نيل الجيزة ووافقت.

وعنـدما اقتـربنا من الكـازينو التصقت بي تستنـد عـلى ذراعي بسبب أعمال الحفر في الطريق، وكثرة وجود مواد البناء في الشارع. وشعرت بحرارة جسدها تسري في بدني.

وجلسنا صامتين نستقبل نسيم النيل، ولا أجد للمنظر البديع طعماً يعوضني عن فرصتي الضائعة في الحب والوجد والصبابة والوله والهيام بمن أحببت!

ولم أجد في نفسي القدرة على سؤالها عن موضوعها الأصلي الذي اتصلت بي في بادىء الأمر من أجله.

وبعد قليل.. همت واقفة وهي تقول: أنا مضطرة للذهاب إلى البيت دلوقت.. لأن من المحتمل أن تعود أمي من بور سعيد فجأة.

وباستسلام وجدتني أوافق. وقالت وهي تركب سيارتها وتفتح بابها من الداخل لأركب بجوارها: لا بيتك ولا بيتي نافع.. ولا فندق.. ولا نادي نافع.. وكله بسببك أنت.

فقلت: أنت أشجع مني!

وبعد قليل طلبت النزول.. فقالت: أنا هاوصلك.. فادعيت أن لدي مشواراً قريباً من هذا المكان.

وتركتها وبصري معلق بسيارتها حتى غابت في الزحام. وعدت إلى بيتي سائراً على الأقدام.. لعل الإرهاق يمتص غضبي وانفعالاتي.. وأفلح في النوم بلا مهدئات.. وأخذت طوال الطريق أقول: لقد جاء حبي في الزمان الخطأ.. والمكان الخطأ. وسوف أترك نفسي لأيامنا القادمة.

ومضت الشهـور وتعـاقبت. . وكـأن حبيبتي قـد ضـاعت في الزمان. . وأصبحت أشواقي تنادي إليها من حين إلى حـين عندمـا تحتل كياني صورتها شبه عارية مرة في بيتها ومرة في بيتي. . وأحاول النسيان.

وكنت وكأن الظروف تحالفت على حبي الجديد. . وعـلى حبي الوليد. أو عليها هي. . أو علينا معـاً. . ثم لماذا هي التي تختصهـا الظروف بكل هذه المواقف. وتخصني بالمحنة.

. . وكانت الحيرة هي الجواب. . أو فصل الخطاب! ومثلما كان يحدث في كل مرة. . حدث هذه المرة. جاءني صوتها بعد غياب طويل. . ورحت أسألها عن أحوالها. . وأزف لها بشرى رحيل جارتنا من العمـارة. . بعد مـوقعة حـربيـة شهيـرة انتصـرت فيهـا إحـدى الجـارات. . بعون ومـدد من الأهل الـذين صـاروا يضـربـونها هي وزوجها في كل يوم حتى اضطر زوجها للتوقيـع بالتنـازل عن الشقة بعد عهد من صاحبة البيت أن تدفع له مقابل أجر خلو رجـل لشقة أخرى.

وشهد جميع السكـان في قسم البوليس باعتداءات هـذه السيدة عليهم. وأن لها سوابق في الاعتداء على الناس.

وأحكي لها آخر موقعة مثل موقعة نابليـون أمام نلسـون في أبي قـير. . والتي فر بعـدها نـابليون عـائـداً إلى فـرنسـا. وطلبت منهـا

الاحتفال في شقتي بهذه المناسبة السعيدة ووعدت بأن ذلك سيكون قريباً. مع تحفظ بأنها أصبحت لا ترتاح في الذهاب إلى مكانك الخطأ كما تقول.. فأعود وأكرر القول.. والزمان الخطأ أيضاً.

وبعد أيام حددت هي موعد اللقاء القادم في اتصال ليلي مثلما كان يحدث. ولأول مرة أقول: إن السيدة لا تعاني من مشكلة.. أو أن مشكلتها هي من اختراعها.. لأنه كان بوسعها أن تتحدث فيها ولو مرة بالتفصيل في التليفون، وكنت أحاول أن أقول من باب الثقة بالنفس أنها تحبك.. ولكن سرعان ما كنت أطرد ذلك الخاطر المغرور.. بأن لديها مشكلة.. ثم أحببت بعد ذلك.. وأن الذي لم يمكنها من ذلك هو أن التليفون قد لا يجعلها تستطيع أن تقول كل حكايتها ورأيي فيها في آن واحد.

ولكنني قلت لها عندما حددت لي الموعد.. أنني سأكون في بيتي قبيل هذا الموعد.. وقبل ذلك سأكون في الخارج لموعد على حفل في منزل أحد السفراء الأصدقاء بمناسبة العيد القومي لبلاده. وقد أكد على ذلك.. وأكدت له ذلك. كما انني أحرص على رؤية بعض الأصدقاء.. تجمعني بهم مثل هذه المناسبات.

وصادفت هناك أحد الوزراء الأصدقاء والذي أصبح رئيساً للوزراء منذ أيام. وأقبل عليّ وأقبلت عليه مهنئاً بالمنصب الجديد. ومن خلال حديثي معه سألني: لماذا لم تدخل في أي حزب من الأحزاب؟ بعد إلغاء المنابر؟

فقلت له أمام بعض الوزراء: أنا أكبر من كل الأحزاب ثم إنه لا يوجد حزب يستوعبني. . لأنه لا يوجد الحزب الذي يجعلني أمارس حقي في التعبير بقصد التأثير في الناس وإقناعهم. كما أنني أشعر بقيمتي عندما أكون مستقلاً.

فقال إنني أخالفك الرأي. . ولي عدة ملاحظات على ما تقول: إننا ننعم بالحرية ولك مطلق الحق في إبداء الرأي. . فقلت: إن الذي تقوله لا نستطيعه سواء كنت مستقلاً. . أو داخلاً في حزب الأغلبية أو في أحزاب الأقلية. وسببي في ذلك هو: أن الأحزاب قد جاءت من معطف السلطة.

كما أن حزب الأغلبية تكون في بادىء الأمر ورئيسه في موقع السلطة. . وأصبح ذلك مخالفاً لما تجري عليه الأحزاب السياسية في تكوينها كما هو معروف في العالم، لأن الذي يذهب إلى رئيس الحزب الذي أسسه وهو رئيس للدولة. . قد تحوم حوله شبهة المظنة أنه ذهب للحزب طمعاً في منصب أو خوفاً من بطش. وأنا لا من هذا ولا من ذاك.

وفجأة ألقيت نظرة على ساعتي واستأذنت رئيس الوزراء في الانصراف على أمل موعد آخر نستأنف فيه الحديث نظراً لارتباطي بموعد آخر. وإذا برئيس الوزراء يقول لي تعليقاً بسيطاً. فقلت مقاطعاً عندما نلتقي مما أثار دهشة السامعين.

رئيس وزراء يريد الحديث مع إذاعي حيا الله ماذا يكون

شأنه. . وهو مشغول عنه بموعد. . موعد مع من. . طبعاً. . لن يكون هذا الموعد مع رئيس الدولة؟!

وكان لطف رئيس الوزراء أغنى من كل بيان عندما سمعني أستأذن أيضاً من السفير الصديق لقرب موعدي. . وأمامي مشقة البحث عن تاكسي. فإذا به يطلب من أحد مرافقيه أن أستقل إحدى سياراتهم إلى حيث أريد. وشددت على يده شاكراً ومودعاً.

وذهبت إلى بيتي قبل موعد حبيبتي بدقائق. وانتظرت، ومرت الساعات ثقيلة بطيئة. . ولكنها سوف تأتي وهذا هو يقيني الذي لا يخيب. . ولكنها لم تجيء!!

أمضيت بعض ليلي ساهراً ومفكراً فيها وأقول بيني وبين نفسي ساخراً:

حبيبتي لم تجيء. . يا سبحان الله.

أضحي بحديث رئيس الوزراء الذي يريد أن يتحدث معي عن التجربة الوليدة في قيام الأحزاب عشية الإعلان عن إلغاء المنابر. وتكوين أحزاب ثلاثة هي الوسط واليسار واليمين. ولم يكن حزب العمل قد تكون بعد.

وكل كلمات رئيس الوزراء التي تعمقت معرفتي به في رحلة سفر طويلة في المغرب تغري بالاستماع. . وأضحي بها وأحضر في موعدي. . وحبيبتي لم تحضر. . آه من سلطان الحب في كل زمان

وفي كل العصور!!.. وآه من الحب في زمانا الخطأ!!

وانتشلني صوتها من وسط هواجسي الساخرة وتساؤلاتي.. وأول سؤال سألته: لعلك بخير.

قالت في هدوء: بخير والحمد لله.

قلت: وما الذي منعك من الحضور في موعدك وقد حضرت قبل الموعد في سيارة فاخرة كنت أخاف لو شاهدتيني فيها أن تخافي مني لأنني قريب من السلطة أن تفرحي لي لأنني صديق الحكام.. ولذلك أنا أعرف إن كنت تحبين ذلك أم تكرهينه.

قالت في هدوء مستفز: لا أحب ذلك ولا ذاك. وأنا أكره السياسة.

قلت: ما الذي منعك إذن؟!

قالت فيما يشبه بلادة الحس والاستهتار: كسل. وخوف من عدم حضورك أنت.. ولديك عذرك أنك التقيت بالأصدقاء فما كان مني إلا أنني أغلقت التليفون في وجهها للمرة الثانية منذ علاقتي معها.

وعادت وطلبتني من جديد.. ولم تدع لي فرصة بدء الحديث وهي تقول: ياما قاسيت من مواعيدي معك.. وأنت اليوم لا تطيق إلغاء موعد.

ولم أرد.

وفي هدوء قلت انتهى ما بيننا إذا وصل الأمـر إلى الاستهتار . .
وأنا أعرف نفسي جيداً. فأنـا في الحب ذلك الـطفل الـذي لا يعنيه سـوى الحب. وأقاوم إغـراء حديث الأصـدقاء بصـرف النـظر عن مراكزهم السياسية من أجل احترام موعدي معك.

وأخيـراً أسمع بكـل لا مبالاة: كلمـة كسل!! ليتـك قلت أي شيء آخر! خصوصـاً وأن هذه الليلة كـانت تبدو. . وأكنهـا جعلت خصيصاً للحب!

قـالت بنفس الهـدوء: أكـذب. . ومشكلتي أن عمـري مـا كذبت.

وسرى في بدني قـدر كبير من الاحتـرام لها عنـد هذه النقـطة.
وقلت: احتراماً لصدقك تصبحي عـلى الخير. وانتـظرت حتى تغلق هي أولاً . .

وظلت السماعة معلقة لفترة طويلة. . حتى سمعت من يضعها على التليفون عند الطرف الأخر.

وقـد شملني الغيظ الشديـد في هذه الليلة. وعـادت إليّ سيـرة الإحباط الأولى وذكرياته.

وارتـاد علب الليل ومسـارحه. . لعـل ذلـك يخفف مـا بي من مشاعر مهزومة!

وبرغم شعوري بالاحترام تجـاه صدقهـا. . وشعوري بـالفشل

والمحاصر في حبها. . كـانت مشاعـري تنادي عليهـا سرا. وانتعش لـذكـريـات الحب القليلة التي كـانت تجمعنـا. وتعـودت نـداءهـا الليلي. . والذي كنا لم نكمله بسبب ظروفها. وكنت اعتبر ذلك من طبيعة الحياة. . فلدينا الكثير تنام عليه الصدور في حياتنـا ولم نقله. ولكنني كنت أريـد أن أسمع كـل شيء. وكنت أنتشي عندمـا كنت أتـذكـر زيـارتهـا الأولى في بيتي عنـدمـا رقصت عـلى مـوسيفى إنت عمـري. . وشاركتهـا رقصة الأشـواق التي لم تتم. . وقضيت العمر بعـد رقصتها الأخيـرة. . أتذكـر وأرقص وحـدي. . ولم أكن أدري بعد رقصة الذكرى والأشواق. أنني سوف أظـل في الرفص وحـدي بلا ساق. وعشت بعد ذلك أياماً أرجو فيها ألا تناديني عندما أتذكر أنها لم تحضر في موعدنـا الليلي. . وردهـا أنها تكاسلت. ولكن بعـد أيام عندما أتذكـرها أتمنى لـو تعود من جـديد، ولـو بنداء في الليـل تقول فيه بضع كلمات.

وطـال انتـظاري. . حتى استبــد بي الغضب وتمنيت ألا تعـود وأتعود الغياب. . وربمـا ضاعت كغيـرها في الـزمان عنـدما يحـاصر حبنـا الأيام. وتتآمر عليه الظروف.

وفي ليلة اليأس هذه جـاءتني كما كـانت طائـراً من السماء يبـدد ظلام وحدتي. جاءني صوتها سماوياً ناعماً.

وقـالت: كـانت لــدي مشكـلة. . وحتى الآن لم أقـلهـا وأصبحت أنت المشكلة. كنت حريصة كل الحرص على لقائـك

فأصبحت حريصة على البعد عنك بقدر ما استطعت . .

وقلت لنفسي : إنها تفكر فيما أفكر فيه تماماً . . ويبدو أن قصتنا على قصرها . . وصلت إلى قاع قلوبنا . . حتى أصبح قلبانا يدقان في صدر واحد . . يا الله . .

ومضيت أصغي لها وأنا حزين لما تقول . . وكان من الطبيعي أن أسألها لماذا؟

قالت : وما هي نتيجة كل ما نفعله . . وماذا سنكون النهايه . . وأنا حتى هذه اللحظة لا زلت مرتبطة ولو بالإسم بالزواج من رجل . . القانون يسميه زوجي . . ومضت تقول : ليتك تساعدني على الخلاص منك ولن أقول لك شيئاً عني بعد ذلك .

وقالت : هل تريد أن تعرف لماذا لم أحضر؟ . . لم يكن سبب عدم حضوري الكسل كما زعمت . . ولكن الرغبة في الخلاص . . بعد ما أصبحت أنت في حياتي جزءاً من تكويني ومن سعادتي من عذابي ومن خوفي ومن قلقي . ولم يصبح في حياتي إلا أنت ولا أدري لماذا برغم ما تمتلىء به حياتي من هموم . وأصبحت أخاف عليك من نفسي . . بعد ما ملكت عليَّ نفسي . وكل شيء ! وقد تكون هذه آخر كلماتي لك . . لا أعرف بالضبط ولكنني أريد أن أسألك . . وتجيبني بصدق كما عهدت فيك . . ماذا تقول عني . . بعد ما جئت إليك ورقصت لك؟

قلت: هذه ذكرى سأعيش عليها.

قالت: هذا كلام يقوله العاشق الصادق والكذاب!

قلت: تستطيع المرأة بما فيها وبما تمتاز عن الرجل من صدق في الشعور، وبما لديها من مشاعر فطرية أن تحكم على الكاذب والصادق.

قالت: هذا ما لا أعنيه.. ولا أقصده.

قلت: ماذا تقصدين إذن؟

قالت: عادة ما يقول الرجل إن المرأة التي أعطتني ربما تعطي غيري.

فقلت ساخراً: تعرفي أنا نفسي واحدة تغلط معايا، وبعد ما تغلط ترفض تتجوزني بدعوى أنني ما دمت أخطأت معها.. يبقى غلطت مع غيرها!!

وتبادلنا ضحكة مختصرة. ثم بدأت حديثاً جاداً بعد ما بددنا الجهامة التي بدأت في كلامنا الأول.. ثم قلت: هذا كلام فارغ ويقوله العامة تحت تأثير الإلحاح على هذه المقولة الشائعة. وهي أن الرجل يقول إن المرأة التي أعطتني، لا بد وأن تكون قد أعطت غيري. ويكون بذلك مبرراً لاحتقارها. والابتعاد عنها.

ولكن الحقيقة أن المرأة لا تعطي إلا إذا أحبت. وكل نساء

الأرض كذلك في كل مكان في الدنيا باستثناء البغايا! ولكن بعد شيوع هذه المقولة والإلحاح عليها قد اكتسبت شكل العقيدة وهذا غير صحيح!!

ومن الواضح أن عطاء المرأة العاشقة للرجل يسعدها ولكن لا ترغب فيه لما يجره عليها من مشاكل تكون فيها الضحية. ومن هنا يكون حرصها. ولكنها في العادة تمنح الحب إلا قليلاً من أجل سعادة حبيبها. لأنها تعرف أن عطاءها القليل يسعده! فما بالك بالكثير!!

قالت: كلامك يسعدني. وهذا ما يحيرني.. هل أستمر.. وماذا بعد الاستمرار.. أم أنقطع واتعذب.

قلت: حتى هذه اللحظة لا نستطيع التخطيط لمستقبل هذا الحب.. ثم إنه من الواضح كما قلت أن ما نخطط له.. تفسده الظروف.. ولعل الأيام تدخر لنا سعادتنا بعد أن أعلنت عن عداوتها لحبنا في الماضي. وفي كل الحالات أنا أنتظرك دائماً برغم كل شيء من أجل سعادتي.

قالت: ومن أجل..

ولم أستمع إلى بقية الجملة.. ولكنني كنت أستطيع أن أتخيل ماذا كانت تريد أن تقول باستثناء مفاجآت الكلام والذي تجيء به عادة كلمات المجاملة. ولكنني كنت أريد أن أقول لها أيضاً: إن

الذي يفسد الحب هو أن تذهب إليه تحت تأثير الموروث القديم من الكلام وننسى أن لكل تجربة حب جلالها وتفـردها. وليس في الحب أستاذ وتلميذ. لأنه رب تجربـة واحدة قـائمة بـذاتها لهـا من العمق الرائع ما تفيد من أكثر من تاريخ كامل في الحب ظل يعيش أبـطاله على هامش الحيـاة والأحداث. أو كـان من ذلك النـوع من اللعب والوقوف بنواصي الشوارع. أو معاكسة الناس في الطريق.

وأعـظم حب هو الـذي تعيشه بكيـانك كله مخلصـاً. . وتكون مستعداً لتحمل نتـائجه. . لأنـه لا خير في حب لا يعـرف الخطر أو المغـامـرة. أو الخـوف والتـرقب والانتـظار والسعـادة واللذة. ومن الأشياء المستقرة في أذهان البعض تلك المقولات التي تشبـه القوانـين في الحب. ومن هـذا القول هـو بيت من الشعر لم يعـرف صـاحبـه سوى واحدة ثم قال: ما الحب إلا للحبيب الأول. ولو أن الشاعـر عرف غير الأولى لعرف أن الحب الأول هو الحب الأخـير. وأن حباً يطرد حباً ولو سأل أحد ذلك الشاعر بـأنه إذا أحب واحـدة وخانتـه وعذبته بعد أن أخلص لها. وهجرته. وعرف أخرى منحته أجمل ما في الـدنيا من عـطاء الحب. والسعادة فيـه. . أيـظل مخلصـاً أيضـاً للحبيب الأول؟. . وفي هذه الحالة يكون مريضاً وكذلك إذا أحببت فتاة. . وتزوجت بمن أحببت. واكتشفت خيـانته. أو أنـه بخيل. أو أنه ضنين بالحنان هل تظل على حبها له برغم كل هذه العيوب.

وإذا صادفهـا بعـد ارتباطهـا السابـق بالرجـل الشهـم النبيل

والكـريم. والمحب. والمخلص. والتي شعـرت معـه أنها في حضن النعيم من رعايته وحمايته. وقوة شخصيته. وإخلاص لبيته.

هـل تظل هـذه عـلى حبهـا القـديم تحت شعـار ذلـك القـول «الهـايف» ما الحب إلا للحبيب الأول؟.. أعتقـد أن هـذه السيـدة تكون هي الأخرى مغرمة بتعذيب ذاتها.

وهـذا لا يمنع أن يصـادف العاشق أو المحبـوبة حبـاً.. يكـون الأول في حيـاة كل منهـما. وكان مـوفقاً ونـاجحاً وعـاش العاشقـان حياتهما كـما يشتهيان. هنـا يصلح ذلك القـول ما الحب إلا للحبيب الأول.. إذن لكـل حب ظروفـه.. ولا يصلح الثـابت من مـأثـور الكلام على الحكم في الحب.. ولكنني لم أستطع أن أقول لها كـل هذا ومضت أيامي بين الانتظار والرغبة فيها.. والبعد عنها. والحيرة بين الرغبتين.

ولكن في قـرارة نفسي كنت أتمنى أن تعـود في وقت وأصبحت انتظرها في كل هبة ريح.. وكل رنين للتليفون كلما جاء الليل.

وأصبحت في علاقتي معها مثل قطعة تطفـو على سـطح ماء نهر راكد. لا تتحرك إلا ببطء.. ولم تصل بعد إلى شاطىء.

وتمضي الأيـام في تتابعهـا وأنا بـين العمل والانـتظار.. وكنت أريـح نفسي بهذا القـول: إن تـاريـخ الحب هكـذا.. وأن تـاريـخ العشاق مليء بمثـل هذه الأمـور.. فما عليـك إلا أن تتقبل الـوضع

وتترك نفسك للظروف. حتى جاء يوم إجازتي الأسبوعية. وقضيتها في بيتي.

ودق جرس الباب في نهاية اليوم.. وامتدت يدي إلى حافظة نقودي.. لأعطي المكوجي حسابه.. وفتحت الباب وكانت المفاجأة.. إنها هي.. هي أماني.

استقبلتها بالدهشة والحيرة والفتور.. وصافحتها في برود وعيني في الأرض.. ولا تقوى على النظر إليها.

كانت في حيرة هي الأخرى من تصرفي. وجلست على المقعد الوحيد خلف مكتبي في صالة بيتي.. وتركتها واقفة.. وكل ما في جسمي يؤلمني. فمالت عليّ ويديها حول عنقي تقبلني، فنهرتها في عنف شديد وبكل قوتي أبعدتها عني. وصرخت فيها. ووقفت ويكاد يغمى عليها من هول التصرف والمفاجأة. ولم أقل شيئاً بعد ذلك وكنت أتمتم بالاستغفار في حيرة وصراع عنيف في لحظة اختبار.. وانتابتني رعشة خفيفة.. وعيناي في الأرض.. وبي رغبة في البكاء. ومضت لحظات وهي لا تفهم معنى هذا التصرف وأسبابه. وأتصور نفسي وأنا أدعو الله في بيته العتيق بهذا الدعاء: اللهم ارزقني الخشية التي تحول بيني وبين المعصية! واستدارت نحو الباب. وهي تقول: لك الحق.. أنا حقيرة لأنني جئت إليك في بيتك. وفتحت لنفسها الباب ومضت إلى الخارج. ولا أدري كم

من الـوقت جلست في وضع لا يتغـير، وعواصف الـدنيا تجتـاحني! وقلق الدنيا يحتلنى.

وقبـل منتصف الليل جـاءني صوتهـا كطلقـات الرصـاص: أنا حقيـرة.. لأنني جئت إليك.. كـل الـرجـال هكـذا يخـدعـون.. يكذبون. هل تذكر كلامك السابق في الحب. لـك حق أن تحتقرني لأنني أحضر إلى بيتك..

فكرت في لحظة طيش في الحضـور إليك بـلا موعـد كي أسعد بـاللقـاء.. لأن تجـربتنـا السـابقـة كـل مـا نخـطط لشيء تفسـده الـظروف.. ولكن لم أكن أدري أنني اعتبـرت المجنـون هـو مليكي وسلطان أيامي والجالس على عرش قلبي.. وهو كل حبي!

ومضت قائلة: لا.. لا.. أنا المجنونة التي جاءت إلى مجنون!!

وبصوت هادىء سألتها: هل انتهيت؟.. هل تدعينني أقول لك شيئـاً.. ثم يكون قـرارك.. وبالمنـاسبة أنت عـلى حق في كـل مـا تقولين.. وأنا لست غاضباً منك. ولكنني وصلت إلى درجـة اليقين أن حبنا جاء في الزمان الخطأ.. أو لا ترضى عنـه الأقدار.. دعيني أقول لك ما حدث لي بالأمس فقط..

ولك مطلق الحرية في اتخاذ قرارك.

وبعصبية قالت: ماذا تقول بعد ذلك وهـل لك عـين أن تقول

شيئاً. . أنا لن أخدع فيك بعد اليوم. . أظنك ستقول لي أنك خائف. .

أنت الذي قلت إن جارتي رحلت. . ثم أراك توسوس وأنا معك. . وتتمتم بكلمات سرية غامضة. . وتتركني واقفة وتدفعني بعيداً عنك.

قلت: أنا فعلاً خائف. . في حالة خوف شديد. . لم أشعر بها من قبل. . وسعادة أيضاً. . وشقاء مصدره الصراع الذي يدور في داخلي.

قالت: ما هذا الذي تقوله. . ومضت قائلة: إذا حضرت لك بعد اليوم. . لك أن تقتلني ضرباً بما في رجلك. . ولكني لن أمكنك من هذا. . لأنني لن أحضر إلى مجنون مثلك بعد اليوم.

قلت: هل تسمحين أن أنهي المكالمة. . برغم أنني كنت أريد أن أروي لك شيئاً لعلك تسمعين. . وأستريح. . وأحب أن أقول بادىء ذي بدء. . إنني أحبك!

أنا يا سيدتي قادم منذ ساعات في بداية الصباح من بيت الله الحرام وقد زرت مسجد الرسول ﷺ.

قالت: متى. . ولماذا. وهل تم كل شيء فجأة. . أم كنت في الحلم؟

قلت: ذهبت إلى مكتبي كالمعتاد. . وإذا برئيسي في العمل

يعطيني تذكرة سفر للعمرة. ولما سألته المناسبة، ولم يسبق له أن فعل ذلك قال:

أرسل لي وزير الطيران المدني هذه التذكرة لأرشح له من أشاء بمناسبة وصول الطائرة البوينج نفرتيتي ٧٠٧، وجرت العادة أن تكون أول رحلة تقوم بها هي رحلة إلى الأراضي الحجازية «للبركة». .وفي العادة يدعون الوزراء ورجال الاعلام لأداء العمرة.

وإذا برئيسي يقول سأعطي الدعوة إلى أول من ألتقي به في الصباح. وكنت بالصدفة أنا. . وفرحت وقلت: ربنا دعاني لزيارة بيته. والرسول دعاني لزيارة قبره.

والرحلة تستغرق ٢٤ ساعة فقط . . وخرجنا من هنا بملابس الإحرام نهاراً. وذهبنا إلى مكة عصراً وقمنا بالطواف والصلاة في بيت الله الحرام في خشوع وضراعة إلى الله أن يتقبل منا.

وقرأنا الفاتحة أمام قبر رسوله الكريم ﷺ.

وتركت توبتي وديعة عند قبره. ودعوت الله لكل من أعرف بالهداية والهدى.

وكنت أنت من بين الذين دعوت لهم بعد أمي وأبي. .

ولا زلت مأخوذاً بروعة الزيارة وجلالها وتأثيرها في نفسي غلاب.

وقد حضرت وأنا في حالة من التسبيح وقد نهضت من صلاتي

وشكري لله لأفتح الباب وحسبت أن الذي يقف ببابي هو المكوجي لذلك كانت نقودي لم تزل في يدي . . ولم أكن أدري أنك ببابي .

. . وكان ما كان فمُعذرة .

وبصوت خفيض قالت: لأول مرة لا أستطيع أن أقفل التليفون . . أو المكالمة . . وأصبحت لا أقوى على ذلك برغم أن والدتي بجواري لا تدري ما أسمع أنا . . وكان في نيتي أن أغلق التليفون في وجهك إلى الأبد . . ولكن معذرة يا مولانا! . . وسألتك البركات!

وانتهت المكالمة . . وأنا لا أعلم أن كلمة مولانا تقولها خاشعة بما رويت . . أو سخرية!

صديقي أحمد . . يصافحني بعد ما رويت ويقول سألناك الدعوات والبركة . . أيضاً!

فقلت: شكراً ثم عذراً لروايتي لو طالت . . وأسأل الله من فضله . وهو الذي أراد أن يكون فراقي في الحب في نفس لحظة اللقاء! ! لأن حبي جاء في الزمان الخطأ!